حَارِسُ القَبْرِ

حارس القبر: رواية
الكاتبة: شاهندا صلاح
تصميم الغلاف: إيمان محمد
تدقيق وإخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 11586 / 2018
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 766 - 664 - 7

دار الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

حارس القبر

الكاتبة

شهد اصلاح

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

اللهم ألهمني السكينة لتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها

والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها

والحكمة لكي أعرف الفرق بينهما

إهداء

إلى الأحمد في صفاته وكلامه والخالد خلود القراءة للمثقفين والموفق

عند ربه وبين يديه، الذي جعل الشباب يقرءون.

الرجل الذب مهما تكلمت عنه لن أوفيه جزءًا من حقه

د. أحمد خالد توفيق

طبت حيًّا وميتًا أيها العراب

* * *

الأحد 7 أغسطس 2010م

درجة الحرارة 43 c

مقابر الإمام

الجحيم يتجسد على الأرض، نفحة من نفحات جهنم أتت لتبلغنا مقدمًا عما سنواجهه في الآخرة اللعنة على من يرى كل هذا ولا يتعظ مثلي!

نظرت له كثيرًا قبل أن يدخلوا جسده إلى تلك الحفرة التي ستتولى مهمة احتضانه بداخلها إلى الأبد، تم ربطه بإحكام داخل الكفن، ذلك المغسل الغبي هل يخاف أن يهرب منه الجسد؟!

ذلك الجسد الذى شهدت معه عمرًا لم يتجاوز الأربعين ربيعًا، مررت معه بجميع مراحله بدءًا من طفولة لم تكن بريئة على الإطلاق ومراهقة ستظل نزواتها معي حتى الممات، ضحكات ودموع أفراح وأحزان صحة ومرض موت وميلاد حياة كانت حياتهما عبارة عن سباق دائم ومنافسة على كل ماله قيمة ولم يكن بدءًا من مجموع ضعيف في الثانوية وكلية تحولت بمرور الزمن وتغير درجة الحرارة إلى مستودع يتحلل بداخله أدمغة الطلبة وأحلامهم مرورًا بإحدى الوظائف الحكومية التي لا نفع فيها ولا ضر لينتمي بعدها لفئة الموظفين، نفس الكرش ونفس البطيخة!

أما نهاية السباق بينهما كان عبارة عن فرسة 150كيلو/ساعة استطاع أن

يسبقه إليها ويركبها ويعبث بمحتوياتها ولم يتركها إلا بعدما ترك بصماته عليها بعدما فرغ منها ليجلس بعدها حسرة وندمًا على ضياع الجولة المائة من يده... تلذذ بسباقه في كل شيء حتى الموت!

تذكر اللحظات الأخيرة في حياته لم يكن يشكو من أي شيء كل ما فعله أنه سقط ولم ينهض مرة أخرى، قاس الطبيب النبض وضغط الدم ثم أخرج كشافًا صغيرًا سلطه على حدقة العين ولم يقل بعدها سوى كلمتين باقتضاب "البقاء لله"....ثم انتهى كل شيء فجأة.

نظرت حولي لم يكن غير الموت ثابتًا حضوره، عازفًا سيمفونيته الخاصة به مكشرًا عن أنيابه برائحة عرفت عنه لتكن فيما بعد مؤشرًا ومقياس درجة حرارة لمعرفة عدد الثواني المتبقية في حياة المحتضر، كان يحمل معه شهادة امتياز مع مرتبة الشرف في الثبات الانفعالي والقدرة على جعل الآخرين يولولون ويلطمون ويأخذون من التراب وعلى رأسهم يضعون، استشعرته بجانبي يقف بهدوء ينم عن ثقة، فاغرًا ثغره ضاحكًا.

عليهم يميل على أذني من حين لآخر يهمس إليَّ واصفًا إياهم بالأغبياء فما هو إلا مجرد وقت قصير حتى يزورهم واحدًا تلو الآخر فلماذا البكاء والنحيب الذى لا يسمن ولا يغني من جوع.. اللهم إنه إعادة مستمرة لمسرحية أغبياء ولكن!

حتى تلك اللحظة لم يستطع أن يصدق أنه حي وأن حسين قد مات وأنه

سوف يعود إلى زوجته تلك العربة النصف نقل الراقدة في المنزل الآن بينما سينزل حسين إلى باطن الأرض ويخضر جسده وينتفخ ويتحول إلى وجبة شهية للديدان!

خرج الحانوتي من داخل القبر وهو يسعل بشدة وينفض الغبار عن يديه بعدما أغلق الفتحة بالإسمنت مع الرمل ثم بللها بدلو ماء ليفصل بعدها حسين عن العالم الخارجي صارخًا: الدايم هو الله.

اقشعر جسده عندما تذكر أن حسين يسأل الآن هل سيجيب؟ أم لن تمهله ملائكة العذاب الوقت الكافي كي يستوعب هو نفسه أنه قد مات!

استمع للمقرئ وهو يتلو في صوت شجن خاشع "إن المتقين في جنات ونهر" عمن يتحدث هذا المقرئ؟ إنه بالتأكيد لا يقصد حسين ولو كان يعرفه حقًّا لقال "إن الكفار لفي جحيم" أخذ التربي بعض صفائح السمن الصدئة القديمة التي زرع فيها الصبار ووضعها فوق المدفن، إن الجدران كئيبة المنظر، يا لغبائه، إن الأموات لا يهتمون بتلك الأشياء فكفاهم ما بهم وما يلاقون... لم تكن رائحة الموت وحدها التي تحيط المكان هناك رائحة بول بشري، ثمة رجل يفرغ مثانته بجوار إحدي المدافن، لم ينظر إلى ما يحدث من دفن وصراخ وعويل ولم يهتم بحرمة الموتى الذين لابد وأنهم معترضون الآن على هذا الشيء وما يخرج منه فقط، هز نفسه ليبرأ من بوله ثم أغلق زمام سرواله بارتياح وغادر المكان تاركًا بصمته المائية به.

نظرت مرة أخرى إلى الحفرة التي تمدد بداخلها في استرخاء يحسد عليه في حين رفع حجر التعريف فوقه مباشرة "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"

حسين كمال - 6 نوفمبر 1970حتى 7 أغسطس 2010

تخيلت كيف سيكون حجر التعريف الخاص بي، إنني لا أريد أن يكتب اسمي وسني وعنواني على الحجر كمن يتقدم ب c.v لطلب وظيفة فليكتبوا أفضل "هنا يرقد أكبر حمار في العالم" علت وجهه ابتسامة ساخرة عندما شعر بأن ما سيأخذه معه من هذه الحياة هو نعي في جريدة يحمل اسم الفقيد واسم المسجد الذى ستقام فيه صلاة الجنازة وموعد العزاء ولن يأتي أحد!

قاطعني من الاسترسال في التفكير والتأمل والده وهو جالس على ذلك المقعد الخشبي المتهالك ذلك الرجل الطيب الذى لم يعرف لابنه صديقًا سواي ولا يعلم أن علاقتي به لا تتعدى علاقة اللبخة بالبواسير حفاظًا على قيام الفتحة الشرجية بعمليتها اليومية في الإخراج لكل ما تم إدخاله في حياتي قهرًا، بدءًا من شهادة ووظيفة وزوجة وأحلام وطموحات انتقلت إلى رحمة الله تعالى بعد الدعاء لها بالرحمة والمغفرة.

بود مصطنع محاولًا العثور على كلمات تعزية مناسبة تقدم منه بخطوات مترددة ليقدم واجب العزاء قائلًا:

-البقاء لله يا عمي إحنا مكان حسين ويا ريت تعتبرني ابنك التاني.

جملة "اتهرست" في معظم الأفلام العربية القديمة لم أحفظ سواها مضيفًا لها بعض العواطف الجياشة ودموع شبه حقيقية مع إجادة تامة لجميع عناصر الحبكة والدراما والإنفعالات مع لمسة قشعريرة لا بأس بها يستحضرها عادة عند تركه لفتاة انتهى منها مبررًا موقفه بظروف المجتمع القهرية التي تجبر أي شاب أن يلقي بنفسه في أقرب بلاعة عن طيب خاطر!

تركه ليذهب بعدها إلى زوجة صديقه كي يقدم لها واجب العزاء كانت قد استندت إلى أحد الأركان بالمقبرة بينما أخذت يدها تبحث عن ثقاب في حقيبتها لتشعل سيجارة أمسكت بها..

اقترب منها ليساعدها كانت يداها ترتجفان من الانفعال وهي تلتقط يده محاولة تفادي النظر له ولم يفلح الدخان المتصاعد من فمها في إخفاء نظراتها التي تدل على خجل واضح، حدثته نفسه أن حسين مخطئ جدًّا أن يتركها الآن في ذلك الوقت من الشباب والجمال والأنوثة الطاغية... سيفوته الكثيرة !

كانت تخفي عينيها خلف نظارة سوداء، مرتدية فستانًا لم يكشف عن الكثير، شاحبة اللون، تحمل أنفًا عنيدًا وشعرًا أحمر ناريًّا يدل على سطوة وتحرر بعيدي المدى، وشفتين ممتلئتين تحملان دعوة صريحة للتقبيل.

تلك المسكينة التي ترملت مبكرًا لم يترك لها حسين شيئًا فقد كان كل ما يملكه ملكًا لوالدته تلك العجوز الشمطاء التي لم تكن على وفاق معها والتى

لابد أنها قامت بطردها من المنزل أثناء تغسيل الجسد، إن جمالها أصبح الرصيد الوحيد الذى تمتلكه في هذا العالم ولكن مع هذا الجسد لن يمر وقت طويل حتى تتزوج بآخر، إن الرجال يعقدون ثفقاتهم هكذا هم يريدون جسد المرأة وهي بالمقابل تريد الزواج والمنزل والمال والأطفال والروح أيضًا إذا أمكنها الخروج، إنها صفقة غير مربحة نهائيًّا للمرأة طبعًا!

ودعت كل ما حولي سريعًا رغبة مني في ترك هذا المكان المقبض بعدما قطعت وعدًا لوالد حسين بأن أزوره بين الحين والآخر.

ألقى نظرة أخيرة على القبر الذى احتضن رفيق عمره، أخذ يرمق شواهد القبور لعله يعرف أحدًا منهم ثم سبقته قدماه خارج المدفن، نظر بألم تجاه الأتوبيس وهو يحشر بداخله مزيدًا من اللحم لينقطع بعدها أي أمل في اللحاق بأحدهم.

وقف على المحطة ينفجر غيظًا بعد مرور ساعة وضياع ما يقرب من خمسة عشر ميكروباصًا لم يستطع ركوب أحدهم حتى لطف به القدر وأرسل سيارة يتدلى منها تباع في حركة بهلوانية لم يكد يلتقط أنفاسه حتى بدأت المقطوعة اليومية لسائقي الميكروباص في العزف بدءًا من لجان المرور وسحب الرخص والإتاوة اليومية التي لابد من دفعها للأمناء حتى يصابوا بعمًى مؤقتٍ عن الرخص التي لم تجدد منذ سنوات، انتهاءً بالأقساط والعلاقة العكسية بين البنزين والأجرة مع تصاعد صوت مصطفى كامل في الخلفية كنوع من

الموسيقى التصويرية للملحمة الشهيرة "أنا وميكروباصي" وعلى ذكرهم يحضرون، تفاجأ بأحد الأمناء يوقفه، حاول السائق أن يغمزه بعشرين جنيه متملقًا:-

- عديها والنبى يا باشا وربنا دا أنت آخر حتة اتبقت من صينية البسبوسة اللى عملها حلوانى مصر.

ولكن يبدو أنها لم تكن كافية ولم يغنه تملقه عنه فقد أمر بإنزال جميع الركاب..

تركهم لاعنًا ثم أشار لسائق تاكسي تبدو عليه آثار الترامادول، الأكياس تحت عينيه التي تميل لاصفرار الشمس لحظة غروبها وتلك الشنة التي يشتهر بها أغلب المصريين توفيرًا للمناديل وسؤاله عن جهة ذهابي أكثر من مئة وأربع عشرة مرة، ميت تم بعثه للحياة على هيئة ميت أيضًا!

من وقت لآخر كان يختلس النظر لي في المرآة مقيِّمًا ملابسي وحجمي ونوعي وفصيلة الدم حتى يضع الكلمة النهائية لطلب الأجرة، قاطعه صوت مذيع الراديو معلنًا عن الحكم بالسجن المؤبد على المتهم في قضية تبادل الزوجات، ضحك ضحكة صفراء خالية من الحياء وعلق بفصاحة تغلب علم وفصاحة ابن سينا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله شوف قلة الخشا والحيا الراجل بيبدل مراته! هي إيه؟ علبة جبنة! فكرني بالنكتة بتاعة الراجل اللى قالوا لُه الحق مراتك

بتخونك مع الكهربائي، قال لهم يا جماعة دا لا كهربائي ولا بيفهم في الكهربا أساسًا ثم أطلق نفس الضحكة الصفراء مرة أخرى.

محدثًا نفسي: - البحترى في أوسخ صوره.

تذكر حسين وكيف كان رحيله صاعقًا ومفاجئًا، لم يكن صديقًا فقط بل شريكًا أيضًا في تلك الحياة البائسة، اقتسما كل شيء حتى الفشل كان مثله لم ينجح في تحقيق أي شيء يذكر حتى موهبته في الرسم كان يتقن رسم الملامح، الأنف المدبب والشعر المعقوص والشفاه الناعمة والعينان اللتان من أجلهما تحرق الأرض بمن عليها، جميع بطلات لوحاته تماثيل جامدة لا تسري بداخلها روح، تثير من يراها ولا تترك أي أثر، اللهم سوى الإعجاب بفن تناسق الألوان ودقة الملامح.

هل انتحر؟ ربما صدمته الفكرة وأرعبته، ولِمَ لا لقد كان كلامه مؤخرًا كئيبًا ويدل على رفض للحياة، يا لغبائه إن العالم لا يعرفه ولن يهتم إن كان موجودًا فوق الأرض أم تحتها "world dont give ashit "

إنه ليس داليدا لينتحر ويترك ورقة بجانب جسده مكتوبًا بها "لم يعد لحياتي معنى" لينتفض بعدها العالم بكبار الشخصيات ورجال الدولة والإعلاميين ليعرفوا سر انتحاره.

لن يفتقده سوى عم محمود البقال وعادل المكوجي وعبد الله الجزار ولو أنه لا يستحق هذا الاسم، إنه ليس من عبدة الله، إنه من عبدة الشيطان.

إن من يبيع كيلو اللحمة بخمسة وستين جنيه لا يصلح أن ينتمي للإنسانية!
من المؤكد أنه انتحر ربما ليهرب من واقعٍ لا أمل له فيه، لقد كان غريبًا في أواخر أيامه لا يكف عن إلقاء النكات الإباحية أمام الجميع حتى أن بعض الأصدقاء ابتعدوا عنه حفظًا لماء الوجه أمام زوجاتهم، انتمى لفئة الرجال الذين يحتقرون المومسات ولكنهم لا يمانعون من النوم معهم.
كان يتلذذ بضرب المومس قبل مضاجعتها، تعود في الليالي الأخيرة أن يدفع حسابه لهن في هيئة شفاه متورمة وأنف يقطر دمًا وكدمة زرقاء بجانب زاوية العين وكسر في الفك السفلي، كثرت لقاءاته ولياليه الحمراء في شقتهم التي اتخذوها خصيصًا لذلك ولتعويض رجولة مفتقدة مع زوجاتهم.
في إحدي الليالي استطاع أن يخلص إحداهن من يده، كاد أن يودي بحياتها من كثرة الضرب، لم يجد مبررًا لتصرفاته الغريبة سوى أن تكون زوجته قد قالت كلامًا لم يكن من المفروض أن تقوله أو أن تكون قد طعنت في فحولته مثلًا أو ذكرته بعجزه عن ليلة فشل فيها في تحقيق رقم قياسي!
أو ربما.. ربما تكون قد نطقت اسمي سهوًا أثناء نومها اللعنة على تلك الليلة التي قضيتها معها بالخطأ.. أفضل خطأ أرتكبه في حياته!
ليلة واحدة كانت كالمصباح الذى أضاء جميع لياليه السوداء التعيسة البائسة، لقد حلم كثيرًا كيف سيكون رد فعله عندما يكتشف خيانته له وحقيقة معاشرته لزوجته وكيف سيكون انتقامه، لابد وأنه سيفقد عقله

صارخًا "نمت مع مراتي يا ابن الزانية" بينما سيوضع نصل السكينة تحت عنقه على الوريد مباشرة.

ظل لأعوام مضت يرى نهايته أمامه دائمًا، صفع نفسه كثيرًا ليستيقظ من حلمه ولكن صفعاته بلا جدوى وكلما حاول النهوض لم يجد ما يتمسك به، هل تشاجرا؟ هل هددته بالانفصال عنه؟ هل ضربها؟

ولكن حسين ليس من الرجال الذين يضربون زوجاتهم ثم يقضي ليلته مع واحدة أخرى كأن شيئًا لم يكن وهو في حالة رضًى تامٍ عن النفس!

أما هو فلم يكن لديه اختيار حينها، لقد كانت تجذبه إليها كما تجذب حورية البحر المستلقية فوق صخرة في عرض البحر الرجال لهلاكهم، كانت تصرخ بلا انقطاع عندما وضعوه داخل القبر ولولا تلك الليلة التي جمعتهما سويًا لصدَّق صراخها وعويلها وادعائها الكاذب بالوفاء والحزن على رحيله عن العالم، نقطة حبر سوداء سقطت في كوب ماء فعكرته طوال أعوام مضت، كان يتحاشى مقابلتها ولا يتكلم عنها بخير أو بسوء فقط يعلم أخبارها من زوجها والمحيطين بها.

تلك الليلة ماتت بالنسبة له، لم يكن يريد أن يسيء الظن بها فقد ابتعد عنها حسين في الوقت الذى كان يجب عليه أن يقترب منها، ثم ظهر هو في المكان والوقت الغير صحيحين.

"إن كل الناس ملائكة وهو وحده الشيطان الذى يعيث في الأرض فسادًا"

أخذ يردد لنفسه تلك المقولة حتى صدقها، لقد فعلت تلك الليلة مفعولها في عذاب ضميره، ماذا يفعل له حتى يهدأ ويخمد؟

تبًّا لذلك الضمير وتبًّا لتلك الحياة العابثة وتبًّا لعذابه الذي يقتلعه ألف مرة من نفسه دون رحمة أو هوادة.

حتى الأوقات التي استطاع أن يمحو فيها ذكرى تلك الليلة كانت تداهمه صورتها، رائحتها، ملمس يدها على وجهه، انعقاد شعرها فوق صدره، مداعبتها لإثارته ونشوته بها كانت لها القدرة أن تحول لوحًا ثلجيًّا إلى بركان ناريٍ يقضي على الأخضر واليابس من أجلها.. وحينما كانت تناديه بدلال وإغراء

-أستاذ.. يا أستاذ وصلنا.

كان هذا السائق لعنه في سره وأعطاه أجرته ليذهب بعدها للجحيم مع خالص الأمنيات بقضاء وقت ممتع هناك!

صعد إلى شقته في حزن واضح، كان يشعر بيأس يتملك منه مثل كهف من الأفكار المظلمة لم يكن يعلم أنه سيحزن لتلك الدرجة لفراق صديقه اللدود. بكى بحرقة عندما رأى الجثمان يتوارى في التراب أستغرب من وجود هذا الكم من الدموع لديه، كان يستطيع أن يقطع علاقته به منذ سنوات مضت ولكنه فضلًا عن ذلك وطد علاقتهما أكثر من ذي قبل وساعده كثيرًا ماديًّا مع بقاء تلك الحرب الباردة بينهما كما هي أن ما يفعله ليس له علاقة بما

يكنه له بل نوع من التكفير ليس أكثر عن ليلة عكرت صفو حياته كما يعكر حجر صفو مياه راكدة وكانت حجته في هذا بأن "ما حدش معصوم من الخطأ وكلنا لازم ناكل من نفس الشجرة وإن الخطيئة في دمنا من أيام سيدنا آدم.. إنه ليس من الأولياء الصالحين "

بمجرد دخوله الشقة وقع بصره على صورة زفافه، كانت الصورة بداية غير مبشرة، ليته لم يذهب هذا اليوم، من بين مئات الحوادث والآف الآشخاص الذين يقتلون سنويًا لم يكن محظوظًا كفاية حتى يكون بينهم!

بجانب صورة زفافه كانت توضع صورة أخرى لحماته على الحائط المواجه لغرفة نومه كنوع من جلب الحظ علقتها زوجته بعدما انتزعت صورة والدته قسرًا ووضعتها مكانها.. حماته ذلك الشيء الذي يتوق إلى جنازة يشبع فيها لطمًا حاول عدة مرات أن يأخذ تلك الصورة ويذهب بها إلى إحدى مصحات علاج الإدمان وأن يتركها هناك كنوع من التشجيع على الاستمرار في التعاطي وأن الحياة لايوجد بها ما يستحق تلك المعاناة!

* * *

دخل غرفة نومه ليراها نائمة مر على زواجهما ثماني أعوام تحولت خلالها من امرأة جميلة رشيقة كاملة الأنوثة إلى ميكروباص 14 راكب ماركة " اللي يحب النبي يزق" لم يعد له مكان بجانبها على السرير أو أي مكان آخر في الشقة بمرور الزمن تزحف وتنمو وتتكاثر وتتوغل وتنتشر لم تكن تلك هي

زوجته التي عرفها وتزوجها إنها إحدى الأرواح الشريرة أتت من باطن الأرض واحتلت جسد زوجته لتحوله إلى مستودع الأنابيب النائم على السرير الأن!

جاءته تلك الفكرة الطفولية بأن يضع مخدة على فمها ويكتم أنفاسها لإيقاف ذلك العزف المنفرد من الشخير.

سيمفونية شاذة فشلت في عزفها وإخراجها للجمهور الوحيد الذي يتابع أعمالها هو وابنته المسكينة.. مستحيل أن تكون تلك المرأة هي التي طالب بتحريرها قاسم أمين وربما لو كان حيًّا يرزق الأن لطالب بدلًا من تحريرها القضاء عليها حفاظًا على الأمن العام وسمعة مصر!

كانت زوجته كما يقال عنها "امرأة تعيش على أنقاض مجد زائف" فجدتها عملت كمساعدة خياطة في محلات شيكوريل الشهيرة واستقلت الباخرة (فايسروي أوف آنديا) نفس الباخرة التي استقلها الملك فاروق والملكة فريدة في رحلتهما إلى أوروبا في 27 فبراير 1937م أما جدها فهو سعد الدين غزال مستشار وشيخ قضاة مصري وملقب بـ" الضمير الثائر" كما يطلقون عليه بسبب دفاعه عن الحقوق والحريات ومواقفه الثابتة.

تدرج في السلك القضائي حتى شغل أرفع المناصب كنائب رئيس محكمة النقض بعدها اشتغل بالمحاماة عقب فصله وعدد كبير من القضاة بقرار جمهوري من الرئيس جمال عبد الناصر عام 1969م فيما اشتهر بمذبحة القضاء، وتحقيقًا لمقولة "يخلق من ضهر العالم فاسد" فلم يحقق والديها

أي إنجاز يذكر سوى إنجابها.. أما هي فكان أكبر إنجاز بحياتها البائسة هو نجاح خطتها في فسخ خطبة ممدوح ابن طنط ديدي خالتها على جيهان صديقتها "الأنتيم" لأنها لم تستطع أن تخسر خمسة كيلو جرامات من أردافها بينما عجزت هي عن خسارة مائة كيلو من وزنها، عندما يتحد التناقض والغباء فسيكون حاصل ضربهما ذلك الشيء الراقد على السرير الآن!

تركها ليذهب إلى الغرفة الأخرى في محاولة منه للتنفس بعد أن ابتلعت زوجته الأكسجين بأكمله، فتح التلفزيون لكسر الملل والوقت وسيمفونية زوجته في الشخير وإزعاج كل كائن حي على قيد الحياة سواء إنسان أو نبات أو حيوان، كانت الأخبار تظهر موهبتها العبقرية وهوايتها المحببة في التنغيص كالعادة على الشعب وسد نفسه عن الحياة بماس كهربائي تسبب في وفاة ثمانية أطفال بحضانات مستشفى الحسين مع تصاعد عدد القتلى بين اشتباكات فتح وحماس في ظل توسعات الاستيطان الصهيوني داخل الأراضي المحتلة ومحاولة السيطرة على بوادر فتنة طائفية ناتجة عن إعلان فتاة قبطية إسلامها داخل محافظة المنيا وغرق العبارة السلام 2 وعلى متنها ثلاثمائة وأربعون شخصًا بالقبطان وطاقم البحارة وانتهاءً بفتاة قامت بقتل عمها وجارٍ التحقيق لمعرفة ملابسات الحادث ليبدأ بعدها برنامج السهرة مع ذلك المذيع السمج الذي يبدو أنه يعاني من مشاكل في قلة هرمونات

الذكورة، لم يستطع ضغطه تحمل أكثر من هذا فقام بتغيير القناة.. نور ساطع كاد أن يعمي عينيه عندما ظهرت هند رستم على الشاشة بذلك الوجه الملائكي وجسد باستطاعته تدمير خط دفاع أي رجل مصري أصيل والذي بمجرد رؤيته ذلك الصاروخ طراز آي جي إس 17 بعيد المدى أن يتنازل عن جنسيته وأصالته ويذهب إلى زوجته بكل هدوء وحب ليسحب يد الهون ويترك علامة مسجلة على دماغها!

ظل ينظر لها حتى أصيب بعشي ليلي واستدعاه النوم بعد إشارة استغاثة من الجسد الذي لم ينعم بالراحة منذ أن جاءه خبر صديقه.. كانت هند بطلة أحلامه تلك الليلة جاءته راكعة راجية منه أن يحتضنها ويقبلها وبعد طول إلحاح وإصرار منها رأف بها وأجاب طلبها كنوع من التعفف والزهد وعدم الحرمان، ووجود زوجته التي تملأ حيزًا كبيرًا من الفراغ في حياته إذ لم تكن تملأ الفراغ كله!

* * *

شعاع من الشمس أيقظ يحيى استدار وغرس رأسه في المخدة ولكنه لم يستطع النوم فقد كان صوت جاره العزيز الذي يغلب صوت شفيق جلال صارخًا:

المية...المية يا بهايم، كفيلًا بإيقاظ أحد أهل الكهف، غادر السرير لاعنًا حظه التعس في السكن بجوار هذا الشيء، ارتدى الروب دي شامبر واتجه إلى النافذة لينظر بعدها للاشيء، شعر بالخواء، يتسلل اليأس بداخله كقط جائع يدخل إلى شقتك ليحصل على ما تبقى من طعام لديك فليذهب العالم إلى الجحيم إذ لم تكن به منافسة حتى إن لم تكن شريفة، شعر بقبضة في صدره، اللعنة على ذلك الشعور الذي يداهمك عند فقد عزيز لديك لتنظر بعدها حولك وتتسائل يائسًا: من التالي؟

- يحيى....يحيى

قاطعه صوت فحيح لشخص يستغيث، إنه يعرف ذلك الصوت ولكن ما يفكر فيه مستحيل، إنه لم يستيقظ بعد، سمع نفس الصوت مرة أخرى يردد اسمه في إلحاح حتى نظر خلفه، لم يكن يعلم ما هو التبول اللاإرادي حتى تلك اللحظة التي بلل بها بنطاله، خفق قلبه واحمر وجهه واقشعر جسده وجحظت عيناه ونسي أن يغلق فمه لينظر برعب إلى الجسد الواقف أمامه ويقع بعدها مغشيًّا عليه.

-يحيى....يحيى يا ابني قوم الله يحرقك بقالي ساعة بافوّق فيك

فتح عينه في ارتياح بعد هذا الكابوس المفزع، تبًّا للبامية والسمنة المغشوشة التي تستخدمها زوجته كنوع من "الخنصرة" والتوفير لصالح حماته المصون.

-أخيرًا فُقت.

انتفض جسده مبتعدًا وفرك عينيه جيدًا ليراه مرة أخرى أمامه نفس الجسد فازداد رعبه وردد متمتمًا:-

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. هي البامية كان فيها سمنة كتير

- بامية إيه وسمنة إيه ركز معايا أنا محتاج لك

اقترب منه يحيى مذهولًا حاول لمسه حتى يتأكد من أنه لا يحلم ولكنه لم يصطدم سوى بالهواء فتراجع في خوف

- دا بجد؟..انت إزاي كدا؟

- كدا اللي هو إزاي يعني؟

- يعني إزاي عايش؟ انت هتستهبل دا أنا دافنك بإيدي وواخد عزاك

- اسمعني كويس يا يحيى أنا محتاج مساعدتك

- الله يخرب بيتك أكتر ما هو مخروب انت مش عاتقني حياة ولا موت

- اعتبر دي آخر خدمة تعملها لي

- عايز مني شوية حسنات يدخلوك الجنة! تبقى غلطت في العنوان ما انت عارفني أنا وإبليس راضعين في بزازة واحدة.

- عايز جثة بس تكون مدفونة قريب.

- بتعجب: مين...جثة....ليه.. فين؟

- أنا ممكن أرجع للحياة تاني بس في جسم أي حد غير جسمي

"الغباء سيد الموقف"

بعدم تصديق وغضب

- هي البامية.. وربنا لاطلقها.. أطلقها إيه وربنا لاقتلها وبعدين أبقى ابعت لها ورقة طلاقها.

- أنا ما باهزرش يا يحيى أنا مش ميت زي ما انتم فاكرين أنا لسَّا حي

- لا يا راجل؟!

- صدقني أنا لسَّا حي جسمي هو اللي رافضني وممكن أعيش لو دخلت جسم أي حد تاني.

ساخرًا

- دا على اعتبار إن جسمك رفع عليك قضية طرد وكسبها، انت طالع تجنني وترجع تاني؟!

-يحيى أنا مش باهزر قُلت لك جسمي رافضني هات الجثة ونشوف بعدها إيه اللي هيحصل؟

أطلق شخرة من أنفه كنوع من الاعتراض

- وتحبها من كارفور ولا التوحيد والنور.. أفهم الأول إيه حكاية إن جسمك رافضك دي.

نظر له ليرى دموعه تتساقط لأول مرة منذ أربعين عامًا، حاول الاقتراب منه ليربت على كتفه فلم يجد سوى الهواء فتراجع خائفًا

- حسين انت بتعيط؟ دا انت عمرك ما عملتها وانت عايش!

تدارك خطأه

- أقصد عمرك ما عملتها وانت اتنين في واحد

بندم واضح

-الحكاية انت عارفها وعشتها معايا أنا يمكن أكون مت امبارح بس جسمي ميت من زمان مافيش حاجة وسخة إلا وعملتها، نمت مع بنات أشكال وألوان اللي بمزاجهم واللي غصب عنهم بس اللي انت ما تعرفهوش واللي يمكن يكون سبب عذابي إني...

توقف عن الكلام محاولًا ابتلاع ريقه بينما تعلقت عينا يحيى به

بتردد

- يحيى أنا... أنا نبشت قبر زينب.

بذهول

- زينب مين.. طليقتك؟

-أيوة

-أيوة! طب ليه؟

- ما كنتش مصدق إنها ماتت وإني مش هاشوفها تاني انت أكتر واحد عارف أنا كنت باحبها قد إيه وعارف كمان إني طلقتها غصب عني لما اكتشفت خيانتي ليها وما رضيتش تسامحني.

- ها..وبعدين إيه اللي حصل؟

- بخجل: أول ما سمعت خبر موتها كنت زي المجنون ما حسيتش بنفسي غير وأنا باجري ع القبر بتاعها وباخرج جثتها وبضمها في حضني وبعدين.....

- قاطعه في اشمئزاز : بس بس الله يقرفك حتى حرمة الموت ما احترمتهاش إزاي هانت عليك تخرجها من قبرها وتهدلها وترجعها تاني.

- أنا كنت حاسس إنها لسَّا عايشة صدقني صورتها وهي في الكفن كأنها بتكلمني وبتضحك لي زي زمان.

- بتقزز: برضه مش فاهم أنا المطلوب مني إيه دلوقتي؟ وبعدين هو مش انتم بتتحشروا في البرزخ لغاية يوم الحساب.

- أنا ميت وما اظنش إن ربنا راضي عني واللي أنا فيه دا نوع جديد من العذاب ما نعرفهوش، انت مش متخيل يعني إيه جسمك يرفضك والأرض كلها تضيق عليك، ما فيهاش شبر عايزك تقف عليه بني آدم مرفوض منبوذ حتى جسمك رافضك وروحك ملعونة ومكروهة مافيش مكان ليها على أرض ولا في سما.

ضحك يحيى وهو يكرر كلامه مرة أخرى

- حلوة ميت وما تظنش إن ربنا راضي عنك دي

توقف عن الضحك عندما نظر له حسين نظرة عتاب

- برجاء: هتساعدني يا يحيى؟

كان يعلم أنه سيكون مجنونًا إذا وافق ولابد أن من يجلس أمامه الآن مجنون هو الآخر ولكن ماذا يفعل في تلك النظرة القديمة التي تستجديه دائمًا بحق ما بينهما من صداقة نظر له طويلًا ثم قال كالمغلوب على أمره

- أمري لله ما فيش قدامي حاجة تانية.

- على فكرة يا يحيى أنا مسامحك

- محاولًا ازدراء ريقه: على أيه؟

- انت عارف على إيه.

زاغ بصره وحاول التهرب

- بخوف: طيب ما تيجي معايا

- ما اقدرش أدخل المقابر.. بيكرهوني

- هما مين دول اللي بيكرهوك؟

- أهلها.

- مش فاهم

- مش مهم تفهم روح بسرعة وأنا هاستناك هنا

تركه يحيى واتجه إلى الباب فتحه وكمن تذكر شيئًا أغلقه وعاد إليه مرة أخرى

- حسين هو انت ماحدش يقدر يشوفك ولا يسمعك غيري زي ما بنشوف في الأفلام كدا؟

- باستغراب: بتسأل ليه؟

- يعني بقول تعمل حسنة في مماتك وتظهر لحماتي يمكن تهد شوية وتبقى خدمتني خدمة العمر لو طلعت لأتوبيس شرق الدلتا اللي نايم جوًا وأهو الحصار يتفك شوية عن الشقة وتبقى كسبت في أخوك ثواب

- ضاحكًا: ما تتأخرش عليَّ يا يحيى.

نظر يحيى إلى الساعة وجدها الخامسة إلا ربع، أدرك أن أمامه وقت غير كافٍ ليحضر الجثة قبل المساء.

ثم قال في استسلام

- أمري لله ساعة وهارجع..

* * *

مقابر الإمام

ليلًا

بجسم ينتفض وأيدٍ مرتعشة وعين زائغة ولسان لا يكف عن نطق الشهادة والتوحيد دخل يحيى نفس المقابر لليوم الثاني على التوالي، لم يكف عن الالتفات حوله، استحضر ذهنه جميع الروايات الطفولية التي تتحدث عن الأرواح والعفاريت وأبو رجل مسلوخة وأم أربعة وأربعين، لعن حسين في سره والزمن الذي فرضه عليه صديقًا، حدث نفسه:

- أنا أكيد باحلم، مجنون مين اللي يطلع له ميت يقول له عاوز جثة لأ وأنا ما صدقت ضربت القميص والبنطلون ونزلت زي الدهف.

حاول إلصاق التهمة بالبامية ولكن لم تجدِ المحاولة نفعًا حين سمع:

- وحدووووه

انتفض جسده وأطلق شهقة عالية ربما أيقظت الموتى في قبورهم ليرى نفس التربي الذي رآه بالأمس في الجنازة بصق في وجهه:

- خضتني يا ابن المرة، قطعت خلف.

- معتذرًا: لامؤاخذة يا سيدنا "الأُستاس" أصل المكان هنا معبي إيشي شمامين على خمورجية على سرنجتية بييجوا يتَّاووا الناحية دي نص الليل وأنا باحاول أنضف المكان عشان الميتين ياخدوا راحتهم على استفراد طلباتك.. أؤمرني.

اقترب منه وبصوت خافت:

- جثة... عاوز جثة

بفخر وثقة مدرس ثانوي يعطي دروسًا لطلبة ابتدائي أجابه:

- عارفكم يا بتوع الدكترة.. طلبك موجود أنهي حتة بالظبط؟

- مستفهمًا: حتة إيه؟

فرك في رأسه قائلًا:-

- اممم.. شكلك جديد ولسَّا طري يعني لا مؤاخذة لو صدر..قلب..كبد هتاخد النص الوسطاني، مخ عيون أنف وأذن هتاخد الراس أما بقى لو عظام نسا بروستاتا لا مؤاخذة هتاخد النص التحتاني.

- بنفاد صبر: انت ليه محسسني إني جاي آخد التموين المكرونة والشاي دلوقتي والزيت آخر الشهر.

- ما هو لا مؤاخذة النظام كدا بيع بالقطاعي ونظام الحتة على بعضها خلص من زمان، إحنا ماشيين دلوقتي تبع الكادر.

- صارخًا باستغراب: كادر!. أقول لك الكادر دا فين وما تزعلش؟! أنا عايز جثة أشرحها يا بني آدم.

- وطي صوتك الميتين يصحوا الكادر كدا لازم تقول لي الجثة تحب نوعها إيه راجل ولا ست عشان دي بتفرق معانا لا مؤاخذة.

ثم فتر ثغره عن ضحكة صفراء لتظهر سنة فضة لم تعرف طريقها جيدًا داخل فمه وأكمل:

_ وطبعًا الحجم 100 ولا 80 ولا تحبها عود فرنساوي؟. أما بقى اللون...

قاطعه لاعنًا إياه في سره

- ديك أبوك على أبو الكادر

تابع الحارس كلامه متفاخرًا

- لآ دا أنا كمان أعرف حتة مقبرة جماعية إنما إيه فيها كل اللي تستمناه اعتبر نفسك معاك بازبورت لأي جنسية عاوزها إيشي ألماني على انجليزي على...

- قاطعه في حدة: خلينا في المصري وهات لي حتة على بعضها

فرك رأسه مرة أخرى قائلًا:

- آه بس دي تمنها غالي حبتين.

- هادفع لك اللي انت عايزه.

- معاك حاجة تاخد فيها ولا تحبها قوم دلفرك، آه إحنا شعارنا راحتك أولًا

- ساخرًا: قوم دلفرك.. لآ هاخدها معايا في شنطة العربية.

- استناني هنا خمسة وراجع لك.

تركه وحمل مصباحًا دخل به أحد المدافن.

ضوء "الكلوب" توهج باعثًا إضاءة كئيبة شعر يحيى عندها بقشعريرة غريبة، لم تعد الرؤية واضحة وكأنه أصيب بعشي ليلي مفاجئ رأى شخصًا يركض في الظلام وسط الكلاب العاوية راحت ساقه ترتجف بلا توقف ترفض أن تثبت، للحظة شعر بقلبه يغوص في قدميه، جهازه العصبي لم يعد يعرف ما يجب عمله لقد فقد السيطرة عليه لابد أن الله غاضبٌ عليه كي يضعه في هذا الموقف...غاضبٌ جدًّا!

انتفض عندما سمع نباح كلاب مرة أخرى تصدر من خلف المقابر فليذهب حسين إلى الجحيم إن أعصابه لم تعد تحتمل هذا المكان الذي أقسم منذ وفاة والده أنه لن يأتي فيه سوى ميتًا وليس زائرًا أو معزيًا أو "دلفيري" جثث!

تعجب أن يكون هناك أناسٌ يعيشون في هذا المكان قادرين على الحياة مع الأموات ينامون بجانبهم ويأنسون بهم ويأكلون من نفحات الرحمة التي تأتيهم ولِمَ لا وحدهم الأموات غير قادرين على إيذائك.

يمكنك أن تأمن معهم وتحيا بسلام حتى تلحق بهم؛ عاد التربي وهو يحمل جثة ملفوفة فوق كتفه قائلًا بفرح:

- جثة طازة ما بقالهاش يومين بس لازم تشتغل فيها على طول أحسن تدود منك.

- بسخرية: أُمال، هاعمل عليها طاجن.

ثم أخرج منديلًا من فمه

- انجز يا عم الريحة هتموتني

لم يستغرق وقتًا طويلًا في إدخال الجثة داخل السيارة والإسراع بها إلى منزله فقد كان أكثر فضولًا من حسين نفسه لمعرفة هل سيعود فعلًا إلى الحياة مرة أخرى أم لا، هو لا يبالي بعودته في هذا الجسد أو في أي جسد آخر إنه يريد أن يطرد ذلك الشبح من حياته فإن ظل هكذا فإنه سيتحول بمرور الأيام إلى مجنون يرى ويتحدث مع خيال لا يراه الآخرون وستكون نهايته معروفة.. العباسية!

* * *

داخل الشقة والجثة ممددة على طاولة الطعام استمع يحيى إلى حسين محاولًا فهم ما يقوله لتنفيذه بينما تمعن الآخر في أحد الكتب التي تتحدث عن علم الأرواح، بادره حسين:

- مكتوب هنا إن جلسة تحضير الروح بتبقى جلسة لتحضير القرين مش الروح نفسها لأن القرين يعرف كل حاجة عن الميت والإجابات بتبقى كلها صح لو الأسئلة تمت بشكل سليم وإني لازم استأذن القرين قبل ما آخد الجسم.

- طب أنا إيه المطلوب مني دلوقتي؟

- أولًا عدد اللي هيحضروا الجلسة ما يقلش عن تلاتة يعني محتاجين اتنين كمان.

- وثانيًا؟

- واحد فيكم هيبقى هو الوسيط الروحي اللي هيسأل والإجابة هتيجي في هيئة أصوات، هترد على الوسيط بس ما حدش هيسمعها لأن الأصوات هتبقى في عقله هو بس.

- بملل واضح: وبعدين؟

- محتاجين طاولة مدورة تقعدوا عليها

- ما ينفعش مستطيلة؟

ثم ضحك ساخرًا من الوضع الذي فيه وتلك الطلبات الغريبة والزمن الذي فرض عليه هذا الشيء صديقًا حيًّا وميتًا

- مهددًا: تصدق أنا بافكر أسخطك وأوفر على حماتك المهمة دي

- بخوف وتراجع: هو انت ليك صلاحيات بكدا؟

تجاهله

- المهم هتطفي أي جهاز ممكن يشوش عليكم يعني لا تلفزيون ولا تسجيل وكل واحد هيمسك إيد التاني وتبدأ تقرأ التعويذات اللي مكتوبة هنا

- بخوف واضح: أنا كان مالي ومال الهم دا وهاعرف منين إن بسلامتها حضرت؟

- هتسمع الإجابة في عقلك وما تنساش بمجرد ما تعرف معلومات كفاية عن صاحب الجثة تستأذن الروح إني أسكن مكانها وبعد كدا تنهي الجلسة.... اتفقنا؟

- اتفقنا

كانت الحجرة مظلمة لم يضِئها سوى بعض الشموع التي كانت تملأ المكان جلس يحيى ومعه اثنان آخران التقطهما من الشارع ظنا في بدء الأمر أنه مجنون عندما حدثهما عن الجثة والتحضير واستئذان الروح ولكن المبلغ الذي أعطاه لكل واحد منهما كان كفيلًا أن يأخذوه على "قد عقله".

جلس الثلاثة حول الطاولة ثم بدأوا ترديد تعويذة التحضير وأعلاهم صوتًا كان يحيى الذي بدأ يتمتم في خوف وهو لا يكف عن النظر حوله.

- اللهم إنا نسألك إنك أنت الإله الحق القادر على كل شيء أن تجعل اتحاد قلوبنا وأرواحنا مع الأرواح التي قبضتها إليك والتي لاتزال منها في هذه الدنيا وأن تجعل في خاصية مناجاتها تقوية لإيماننا وتسهيلًا لمهمتنا وأسألك أن ترسل لي روح (صبري عواد) ولك منَّا الثناء والدعاء ولنا منك الإجابة والمغفرة"

ومع انطفاء الشمعة الأولى ارتجف يحيى ثم أكمل في خوف

- "ولو أن قرءانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعًا" عزيمي إليكم وعليكم يا معاشر الأرواح الروحانية وسكان الأرض والهواء أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير

على بعد منهما كان يقف حسين قرب النافذة يتابع المشهد بصمت وترقب في انتظار مجهول لم يكشف عن نفسه بعد حتى سمع تلك الدقة على الطاولة، كذب نفسه في بادئ الأمر ولكن نظرة يحيى المليئة بالرعب أكدت له ما سمعه وأن الروح قد حضرت فعلًا

- باسم المسيح، باسم المسيح.

كان ذلك أحد الرجلين اللذَين أحضرهما يحيى والذي مال عليه في خوف وسأله بصوت يكاد يكون مسموعًا.

- الله يخرب بيتك.. انت مسيحي؟

-آه وفيها إيه؟

- حسين كان مسلم واللي بنحضره دا مسلم انت هنا بتهبب إيه؟.. هو دا وقت وحدة وطنية ويحيا الهلال مع الصليب؟!

- وإيه يعني يا فالح هي الروح هتطلب مني البطاقة قبل ما تنزل.

كان الصوت واضحًا جدًّا يبدو أنه يأخذ نفسه بصعوبة، شعر به يحيى يقف خلفه وحينما استدار ليراه انطفأت جميع الشموع لتغرق الغرفة في ظلام وخوف قاتل انتفض يحيى ومن معه محاولين العثور على الضوء وسط صرخات أحد الرجلين الذين أحضرهم وبصعوبة بالغة عثرت يده على مفتاح النور التفت حوله ثم نظر إلى الطاولة برعب متسائلًا ببلاهة:

- هي الجثة راحت فين؟

كان هذا السؤال بمثابة صافرة إنذار ليجري بعدها الرجلين في رعب خارج الشقة ليتركا يحيى وقد تسمرت قدمه في الأرض وقد أصابه شلل تام لم يستطع بعدها أن يتحرك خطوة واحدة مسلطًا نظره على الطاولة ثم انتفض كأنه تذكر شيئًا آخرًا أهم من الجثة

- حسين...حسين

* * *

الصَّحْوَةُ الأُولَى

القاهرة - حي الجمالية

سبتمبر 1998م

بلادي بلادي بلادي لكِ حبي وفؤادي

مصر يا أم البلاد أنتِ غايتي والمراد

كان الصوت صاعقًا يزلزل السماء خارجًا من إحدى المدارس الثانوية المشتركة، كان الطلبة يرددون النشيد في همة ونشاط غير مسبوقين وكأنهم سيخرجون لتحرير العالم من غزو فضائي محتمل ثم انتشروا بعدها كالجراد، نجحت الوزارة في حشوهم داخل الفصول مثلما تحشو المناهج داخل عقولهم.

- امبارح اشتريت بنطلون جينز وجزمة جلد هاحضر بيهم عيد ميلاد إنجي اللي جاي.

كانت تلك إحدى الطالبات محدثة صديقتها بتفاخر وحماسة كأنها اكتشفت كيفية مواجهة الاحتباس الحراري في الغلاف الجوي بينما رسم طالب آخر زميلته في كاريكتور مضحك وزميله في التختة ينظر للرسم ويضحك، وآخرون يقلبون صفحات إحدى المجلات العارية وهم يتبادلون بعض النكات الإباحية.. وأخرى تأكل.. وآخر نائم.

حتى دخل شيء على هيئة مدرس كان يمتلك كرشًا ذا منحنى غريب وبنطالًا يتمسك بجسده بصعوبة بالغة به رقعة من الخلف تصلح أن تكون فتحة تهوية جيدة لمثل تلك المؤخرة التي لا ترحم كل ما تجلس عليه والتي بإمكانها فض مظاهرة عن طريق إطلاق أحد صواريخ (الميج 17) والتي إن استطاع أحد فاعلي الخير وذوي القلوب الرحيمة تعليق لافتة عليها مكتوب بها "لا تهدئ السرعة وكن على مسافة 7 كيلو على الأقل.. انجُ بحياتك"

وإذا كان التعيين كمدرس له كشف هيئة مثل الحربية والشرطة لكان هذا سيأخذ حظه من عدد 1 مرفوض رفضًا قطعًا حفاظًا على الأرواح والأمن العام وعدد 2 قذيفة هاون ماركة (امشي يا وسخ من هنا وما تجيش تاني) حتى يكون عبرة لأمثاله من الطفيليات.

أحد الطلاب محدثًا زميله: يا دي النيلة.. أهو دلوقتي هيبتدي الأسطوانة المشروخة بتاعة كل حصة ويكلمنا عن المؤامرة الكبرى للقضاء على الإسلام والمسلمين على يد أبو لهب الأمريكي وأبو جهل الصهيوني.

ثم غير صوته محاولًا تقليد يوسف بك وهبي: تبًّا لهم جميعًا ولتحيا الأمة العربية.

ثم غمز بعينه لإحدى الطالبات في الفصل وردت هي بابتسامة

أحد الطلاب مقاطعًا المدرس راجيًا بشكل مسرحي

- أبوس إيدك يا مستر كفاية سياسة قربنا نتكرع.. انت إيه ما عندكش عيال مش كفاية وكسة الماتش بتاعت امبارح هتبقى انت والحكم علينا.

هاجمه المدرس بصوت كمن يصدر من أهل الكهف

- ما هو حيوان زيك مش عايز يعيش في الدنيا عايز ياكل ويشرب ويخش الكبانيه وينام زي البهايم.

- ما بلاش انت بالذات يا مستر تتكلم عن الكبانيه دا زمان القاعدة انتحرت.

انفجر الطلاب ضحكًا بينما اكتفى المدرس بطرده من الفصل واصفًا إياهم "بشوية بهايم غجر لا يستحقون التعليم".. غاب الصوت شيئًا فشيئًا حتى أصبح منعدمًا عند نادية التي انفصلت تمامًا عما يجري حولها طوال اليوم مرت عليها الساعات بطيئة متثاقلة تترنح عقاربها كالمخمور يتخبط ليلًا يقدم قدمًا ويؤخر قدمًا أخرى حتى لا يذهب إلى وجهته التي يشرب الخمر من أجلها.

لم تكف عن النظر للاشيء مستمعة لصوت واحد فقط في عقلها وهو صوتها وهي تصرخ باكية حين.....

دق جرس انتهاء اليوم الدراسي وعادت مرة أخرى إلى عالمها مع انفلات دموع منها، أبت الصمود تسابق الطلاب للخروج من الفصل سريعًا كمن يخرج من سجن للحياة بينما خرجت هي بخطوات متراجعة خائفة كمن يخرج من الحياة عائدًا لسجن، أخذتها أقدامها خارج المدرسة ظلت كما هي تحدق

للفراغ حتى اخترق صمت عالمها صوت إحدى صديقاتها مناديًا عليها مستوقفها:

- نادية.. إيه يا بنتي أنا باجري وراكِ من الفصل لغاية هنا.. إيه مش سامعاني؟

التفتت لها معتذرة

- آسفة يا نور ماخدتش بالي

انضمت لهم صديقة أخرى بادرتهم قائلة

- إزيكم يا بنات سمعتو آخر الأخبار

ثم مالت عليهم هامسة

- مش مريم مامتها أسلمت

نور بعدم تصديق

- بتهزري!

- على فكرة بقى هي ما أسلمتش عشان الإسلام، تلاقيه ضربها كالعادة

- نادية: يعني انتم دخلتم جوَّا نيتها وبعدين أنتم مالكم أصلًا كل واحد حر في نفسه وبلاش تتكلموا في الموضوع دا تاني عشان ما تسمعكوش وتزعل.

رأوا مريم قادمة من بعيد

- سلام دلوقتي، شكلها جاية علينا.

استأذنوا منها وانصرفوا مسرعين مرت بجانبهم مريم وهي تنظر لهم باستهزاء، ابتسمت نصف ابتسامة كأنها أرادت إخبارهم بذلك، إنها تعلم جيدًا أنهم يتحدثون عنها، بينما نظرت لها نادية مرتبكة حاولت التظاهر بعدم رؤيتها وأكملت سيرها، لحقت مريم بها واقتربت منها واضعة يدها على كتفها بعتاب

- ليكِ حق تعملي نفسك مش شايفاني.

- أبدًا أنا بس مستعجلة انتِ عارفة مرات عمي لما باتأخر بتعمل إيه فيا، المهم انتِ عاملة إيه؟

- بسخرية: مافيش داعي تسألي السؤال دا أكيد سمعتِ اللي حصل، المدرسة كلها مالهاش كلام غير عني دا أنا بقيت حديث المدينة ع العموم يومين ويتصالحوا وترجع تاني أنا خلاص خدت على كدا.

- بتعجب: يعني إيه خدتِ على كدا؟

- يعني هي دي الورقة اللي أمي بتلوي بيها دراع أبويا لما يضربها أو يضايقها أنا ما انكرش إني أحيانًا باحس إني قدام حد ما اعرفهوش وخصوصًا لما بيضربها بتصعب عليَّ جدًّا ولما باحوش عنها بينسى إني بنته ويضربني أنا كمان بس بيرجع تاني يصالحني أنا وهي وبيعتذر عن اللي عمله، بابا كويس على فكرة بس بتيجي عليه أوقات بيفقد فيها أعصابه وما بيبقاش عارف هو بيعمل إيه، كلنا كدا.. المشكلة في ماما مش بتسامح بسهولة وبتتعامل معاه

على إنه خليفة هتلر بيني وبينك البيت اتقلب فعلًا بقى عامل زي الهولوكست كل واحد عايز يولع في التاني.

نظرت نادية إلى ساعتها بخوف واضح

- ربنا يصلح الحال بينهم.. أنا اتأخرت مش هتركبي معايا؟

- لأ معلش ورايا مشوار أعمله وبعد كدا هاروح البيت

قبلتها مريم على خدها مودعة

- هاشوفك بكرة

- إن شاء الله.. مع السلامة

وافترق كلٌ منهما إلى طريقه

بروح خاوية وحياة بلا معنى أو هدف كسفينة سقطت أشرعتها وانقطع مرساها ومضت بلا مرفأ أو وطن تلجأ إليه، صعدت نادية درجات السلم تحصي خطواتها مع كل درجة تصعدها تحترق نفسها وتهوي روحها في جحيم لا قرار له بحزن واضح يخيم على وجهها ومصير غير مجهول تعرفه جيدًا وصلت للشقة ودقت بابها فتح لها رجل في منتصف الأربعينات بمجرد أن رآها وضع يده على الباب حتى لا تدخل بدت لها ملامحه كالنسر وعيناه باردتان، عظام خديه تضفي على وجهه مسحة شيطانية وأنفه الكبير يتناسب مع فمه المهيب، فترثغره عن ابتسامة صفراء وأردف قائلًا

- أهلًا حبيبة قلب عمها

نظرت له بكراهية شديدة وأزاحت يده بعنف من على الباب ودخلت لتستقبلها زوجته وهي امرأة في العقد الثالث من عمرها تبدو عليها ملامح قسوة وعدم رحمة لتتجلي فيهما الآية الكريمة "الخبيثون للخبيثات"

- أهلًا بالبرنسيسة اللي تقعد تلف وتدور في الشوارع والله أعلم مع مين.. كل دا تأخير؟!

ابتلعت كلامها المسموم متجاهلة

- ماعلش يا مرات عمي أصلي....

- قاطعتها معنفة: انتِ لسَّا ياختي هتلتي وتعجني، خشي اقلعي هدومك بسرعة وتعالي ساعديني

تركتها نادية ودخلت غرفتها لتبدل ملابسها، لم تكد تخلع قميصها حتى فتح الباب ودخل عمها فجأة بدون أن يطرقه كالعادة!

سترت نفسها مرة ثانية بالقميص وسألته بعصبية

- إيه... في إيه؟

مرت عيناه على جسدها بنظرة حيوانية تعلمها جيدًا

- مرات عمك بتقول لك خلصي بسرعة

- باشمئزاز: طيب جاية.. اتفضل

أشارت له بالخروج من الغرفة وعندما وجدته واقفًا كما هو دفعته بقوة

- باقول لك بعد إذنك!

أغلقت الباب خلفه باشمئزاز ثم بدلت ملابسها سريعًا قبل أن تأتي زوجة عمها الفاضلة لتصب لعناتها وجام غضبها على جسدها الذي لم يعد يحتمل انتهاكات كل من يقترب منه.

مسحت الشقة بقطعة قماش كانت تبتلها من الجردل وتعود لتمسح الغرف مرة أخرى لأن أبناء عمها الأعزاء كانوا يمارسون هوايتهم كالعادة بالمشي في الشقة أثناء تنظيفها.. ثلاثة أبناء في أعمار مقاربة.

لعمرها لم يكلف أحد منهم نفسه بتقديم المساعدة أو حتى تجنب مشقتها بالانزواء في حجرتهم حتى تنتهي من ذلك الواجب اليومي بل اكتفوا بالإعلان عن مشاركتهم لها بتلك الابتسامة المتعاطفة الصفراء التي تود أن تمحي ملامحهم حتى لا تراها مرة أخرى.

شعرت به ينظر لها من الخلف لم تلتفت له بل أكملت ما كانت تفعله حتى اقترب منها فجأة وامتدت يده لتلمس جسدها، رأته في مرآة الصالة انتفضت وابتعدت عنه منادية بتهديد

- مرات عمي.. تعالي.

ابتعد عنها هامسًا بخوف

- خلاص.. خلاص

مرت ساعة قبل أن تلحق بزوجة عمها في المطبخ نظرت للطعام باشتهاء بادرتها الأخرى

- انتِ كلتِ الوجبة اللي بيوزعوها عليكم في المدرسة؟

وقبل أن تجيبها رأت زوجها يدخل المطبخ فقالت بخبث

- ع العموم أنا مش هاتحايل عليكِ عشان تاكلي طالما جاية من المدرسة شبعانة ما تقولي عيب لما تاكلي استخصار

أدركت نادية ما تعنيه أجابتها بنظرة طويلة صامتة قبل أن تتركها لتعود إلى غرفتها حيث وحدتها وشقائها التي لا تملك سواهما بينما توجهت هي لزوجها وقالت شاكية بلهجة مسجون في معتقل:

- على إيدك أهو أحسن معاملة وشايلة البيت لوحدي وكمان مش عاجب ساخرًا من كذبها

- من غير ما تقولي أنا شايف معاملتك ليها يا حبيبتي سيبك منها أصلها صنف خسيس زي أبوها.

في ذلك الوقت

كانت مريم تسير في الشارع رأت أحد المنازل الخاوية دخلت فيه وجلست على السلم أخرجت من حقيبة مدرستها مرآة صغيرة أصلحت شعرها ووضعت أحمر شفاه وأدخلت الصليب المعلق في صدرها داخل القميص ثم أغلقت شنطتها وخرجت من المنزل مرة أخرى، كان قلبها يسبقها بخطوات حينما وصلت إلى مكان تعرفه جيدًا حيث كان ينتظرها شاب أسمر نحيل ذو شعر

أكرت لا يعرف طريقه وعينان بنيتان جميلتان لا تفصحان عن شيء، أقبلت عليه بفرح شديد متسائلة:

- اتأخرت عليك

- بسماحة: لا أبدًا

ثم وضع يده في يدها وغابا بين الوجود

* * *

داخل حجرة نومها والساعة تشير للثانية صباحًا تمددت على السرير مغلقة العين أبى جسدها النوم في تلك الليلة كانت تعلم أنه سيأتي ليكمل جريمته التي بدأها منذ سنوات ليقضي على ما تبقى من جسدها الذي اعتاد انتهاكه وتدنيسه، نوع من السقوط في بئر عميق لا يوجد به قرار أو مخرج أو طريق للنجاة فتحت عينيها عندما سمعت صوتًا يأتي من الخارج حاول فتح الباب ولكن المكتب الذي وضعته خلفه كان عائقًا مؤقتًا له حتى استطاع أن يفتحه ويزيح المكتب قليلًا هنا رفعت الغطاء من عليها سريعًا وأخذت العصا الخشبية التي وضعتها تحت السرير وبمجرد أن وضع يده على الباب استجمعت كل قوتها وضربته بالعصا على يده وأغلقت الباب وأعادت المكتب خلفه مرة أخرى حينها سمعت صراخه وعويله في الخارج كان يتلوى ويصرخ من الألم ككلب يعوي، استيقظت زوجته وأضاءت أنوار الشقة وهي تجري متلهفة عليه.

- إيه...جرى إيه أنت اللي بتصرخ كدا؟!

- بارتباك: أيوة كنت قايم أشرب وقعت على وشي

بارتياح وهي تربت على كتفه مواسية

- جات سليمة الحمد لله يلا ننام عندنا شغل الصبح

أطفأت الأنوار وهي شبه نائمة بينما نظر هو بتوعد اتجاه غرفة نادية

* * *

في الداخل

جلست على الأرض خلف الباب وهي ترتجف، لقد غاب كل شيء بداخلها حتى تأتي أقل ذكرى تستدعي كل ما حدث لها هي لم ولن تنسى ذكرى ذلك اليوم الذي ذبحت فيه منذ زمن مضى ويتم ذبحها يوميًّا حتى الآن، تتحرك المشاهد أمامها كشريط سينمائي يتكرر بلا نهاية أو توقف.

عاد بها عقلها حين كانت طفلة ذات ست سنوات كانت تلعب مع أبناء عمها داخل حجرتهم حتى سمعت صوت عمها وزوجته وهما يتشاجران، كان ممددًا على السرير نصف نائم بينما ارتدت زوجته ملابسها لتذهب إلى عملها

- أنا مش فاهمة إجازاتك كترت ليه اليومين دول مش احنا أولى بالأيام دي

- باشمئزاز: باقول لك تعبان وعايز أرتاح شوية هو أنا إيه جاموسة مربوطة بتحلبها ليكِ ولعيالك

- همَّ عيالي لوحدي ما همَّ عيالك انت كمان مش كفاية تلاتة ابقاق لأ وجايب لهم بق رابع كمان يزاحمهم في لقمتهم وفرشتهم.

ثم نظرت للساعة

- يا خبر أنا اتأخرت الأكل عندك في التلاجة لو جعت سخن وأكل العيال معاك

- سلام

وبعد خروجها

- في ستين داهية

لمعت عينه بطريقة شيطانية وغادر السرير متجهًا إلى غرفة أبنائه وجد ابنته ونادية جالسات على الأرض وتلعبان بإحدى العرائس، أخذ ابنته من يدها وأخرج جنيهًا من جيبه أعطاه لها قائلًا:

- خدي يا سارة الجنيه دا وروحي هاتي حاجة حلوة وبعد كدا اطلعي اقعدي مع عمتك شوية ولو سألتك عني قولي لها بابا نايم

بفرح

- حاضر يا بابا يلا يا نادية

- لأ سيبي نادية معايا شوية وهاخليها تحصلك

أخرجها وأغلق الباب خلفها، اقتربت نادية منه وهي تنظر تجاه الباب الذي خرجت منه سارة أمسكت بيد عمها وسألته ببراءة

- عمي أنا عاوزة أروح مع سارة

- نظر لها بحقد وكراهية: مش تروحي تغيري هدومك الأول

تركته ودخلت غرفتها مسرعة لحق بها وأغلق الباب ولم تذكر شيئًا بعدها سوى صرخاتها المكتومة

عادت مرة أخرى إلى عالمها، ملأت الدموع عينها ولكنها تحجرت فأبت أن تسقط تنهدت باستسلام ضمت قدميها إلى صدرها ووضعت رأسها داخل يدها ونامت على هذا الوضع

* * *

استيقظت في اليوم التالي، لم تشعر بقدمها أو يديها ورفضت رقبتها أن تكف عن الألم الناتج من نومها هكذا ولكنها كانت قد أتخذت قرارها أحضرت حقيبتها ووضعت بها بعض الملابس ارتدت الزي المدرسي وتسللت من المنزل قبل أن يستيقظ الأخرون سارت في الشوارع وهي تهيم على وجهها لم تذهب إلى مدرستها وعوضًا عن ذلك صعدت سلم أحد المنازل حتى استوقفتها إحدى الشقق نظرت جيدًا للافتة المعلقة على الباب والتي كتب عليها بخط واضح

" محمود عواد / محاسب مالي"

أستجمعت شجاعتها وضغطت على زر الجرس وبعد فترة ليست بطويلة فتح لها رجل نصف نائم في أوائل الخمسينات تسلل بعض الشعر الأبيض إلى رأسه يحمل عينين متسائلتين بمجرد أن رآها ابتسم نصف ابتسامة كانت غير مرحبة بها ثم قال بفتور:

- نادية.. تعالي يا حبيبتي

اقتربت منه لتحتضنه أعطى لها ظهره دون قصد دخلت وأغلقت الباب خلفها ثم توجه بها إلى الصالون وأجلسها هناك، صمت الاثنان لحظات وكلٌّ منهما ينظر للآخر، بادرها قائلًا:

- إزيك يا حبيبتي عاملة إيه؟

- كويسة الحمد لله

- إيه اللي جابك بدري كدا مش المفروض تكوني في المدرسة دلوقتي؟

سكتت قليلًا ثم حدثته بارتباك

- في الحقيقة يا بابا.. أنا أصلي... يعني.. ممكن أقعد معاكم هنا شوية

- بضيق: نادية انتِ عارفة إنا....

قاطعته راجية في استعطاف

- ما تخافش يا بابا أنا مش هاقعد هنا على طول أنا تعبانة ومخنوقة.. أرجوك يا بابا.. هما يومين بس

- بتململ: هي مش المصاريف بتوصلك حد مضايقك أو مزعلك هناك أنا ممكن أكلم لك عمك.

لم تكن تعلم ماذا ينبغي عليها أن تقول أكثر مما قالته لوالدها الجالس أمامها الآن فإن لم يكن يشعر بمعاناتها في الحياة بمنزل عمها وهو والدها فمن ذا الذي سيشعر بها في تلك الحياة القاتلة.. ما يسأل عنه هو مصاريفها التي لا تصلها لكي يتخلص من ذلك العبء والحمل الثقيل ليكمل حياته السعيدة مع زوجته والتي تعتبر التخلص منها سببًا رئيسيًّا لاستمرار تلك الحياة.. اللعنة عليه وعلى أمثاله من الآباء الذين لا ينظرون سوى لأنفسهم فقط، لماذا أنجبها وأتى بها إلى هذا العالم إن لم يكن يريدها؟

عندما رآها صامتة ورأسها في الأرض قال بانهزام:

- هاقوم أجيب لك عصير تشربيه

تركها ليذهب إلى المطبخ وكأنه تذكر شيئًا التفت لها متسائلًا

-انتِ فطرتِ الأول؟

لم تجبه واكتفت بهز رأسها نافية.. تركها ولم يغب سوى دقائق معدودة عاد بعدها حاملًا طبقًا من السندوتشات وضعه أمامها ثم تركها مرة أخرى ليرتدي ملابسه وينصرف إلى عمله، جلست على الأريكة في ارتياح ظاهر نظرت إلى غرفة الاستقبال بنوع من الانبهار فقد أعاد والدها تزيين الجدران وتغيير المقاعد، هناك باقة من الزهور تسر الناظرين وتحفة فرعونية صغيرة تسرق البصر، إلى جانبها أحد الأرفف وضعت به كتبًا ومنضدة أنيقة تراكمت عليها الصحف والمجلات، مدَّت يدها لتأكل، مر عليها يومان دون أن تضع شيئًا في معدتها كانت تشعر بجوع شديد ولكن قبل أن يصل الطعام إلى فمها ارتفع صوت والدها وهو يتشاجر مع زوجته فأعادت الطعام مرة أخرى إلى الطبق أمامها.

لم تكذب الأفلام العربية القديمة حين وصفت زوجة الأب بالمرأة الشرسة التي تتسم بالقسوة الحادة، الطباع الكارهة لنبت غير نبتها ولا تحمل بداخلها ذرة شفقة واحدة أو عطف وإن تجمعت كل تلك الصفات فسيكون

حاصل جمعهما تلك المرأة التي تزوجها والدها بعدما هربت والدتها وتركتها لحمة حمراء في أيدي ذلك الحيوان عمها وتلك البومة بالداخل والتي كلما تراها تشعل نيرانًا لا يستطيع أحد اطفاءها.

_ دي إيه اللي جابها ع الصبح كدا هي كل شوية هتنط لنا وتعملنا شغلانتها محاولًا تهدئتها قائلًا بصوت خافت

- عايزاني أعمل إيه يعني أطردها بتقول هتقعد شوية وترجع تاني شكلها مش مستريحة هناك.

- مش مستريحة هناك وجاية تقرفنا إحنا هنا، أمها دايرة تنبسط مع الرجالة واحنا اللي نشيل في الهم والقرف دا

قاطعها بعصبية بعدما طعنت في رجولته وذكرته بعارٍ مضى

- مالوش لازمة الكلام دا دلوقتي قُلت هتقعد معانا يومين تغير فيهم جو وترجع تاني عند عمها.. انتهينا

تداركت خطأها، اقتربت منه متراجعة عن كلامها ثم همست في فحيح حية تقترب من ضحيتها لتلقي بسمها على ضحية أخرى وضعت يدها على كتفه في دلال قائلة:

- بس دي هتضيق قوي على سلمى

بصوت قاطع

- افرشي لها ملاية ومخدة ع الأرض مش هتقول لا.. ها قُلتِ إيه؟

- بحقد وتحفز: اللي تشوفه هو فيه قول بعد قولك تشرف وتنور

ثم أكدت على كلامها:

- اليومين دول

في الخارج جلست نادية كتمثال تجمد به الدم استمعت لما قالته زوجة والدها وابتلعت كلامها المسموم فليشملها الله برحمته هذا قدرها فلتتحمله!

* * *

عادت من الخارج

شعرت بمرارة في حلقها تنغص عليها حياتها عندما استمعت كالعادة لصوت والدتها وهي تصرخ:

- اوعى تفتكر إني عشان رجعت لك إن دا ضعف مني، لو إيدك اتمدت عليَّ تاني انت عارف أنا هاعمل إيه.

- صارخًا: اعملي اللي انتِ عايزاه انتِ هتذليني.. غوري في ستين داهية

- بتحفز: كدا.. والله لتندم وأخليك عبرة لمن يعتبر وبكرة تشوف يا مجدي

ثم أزاحت مريم من طريقها تاركة المنزل

- روحي يا شيخة ربنا ياخدك انتِ وأمثالك

ضحكت مريم بسخرية من تلك المسرحية الهزلية التي أتقن الممثلون بها أدوارهم في جعل الجمهور يمل من مشاهدتها نظرًا لعدم وجود أحداث جديدة أو حبكة درامية حتى، النهاية معروفة مقدمًا.

دخلت حجرتها وألقت بنفسها على السرير امتدت يدها لتأخذ إحدى الروايات من على المكتب بجانبها حين رن الهاتف، نهضت سريعًا وأغلقت الباب بخوف وجاءها صوته

- وحشتيني

- بصوت خافت: انت كمان وحشتني قوي وبعدين وحشتك إيه يا مفتري ما احنا كنا مع بعض انبارح.

- هاشوفك النهاردا؟

-مش هينفع النهاردا.. ممكن بكرة بعد المدرسة

- اتفقنا... سلام

- مع السلامة

أغلقت الهاتف مبتسمة هل من الممكن أن يكون القدر بمثل هذا العدل أن يعطيها والدين مثل الذي بالخارج وأن يهبها في نفس الوقت محمد!

* * *

في اليوم التالي

وبعد ذهاب زوجها للعمل دخلت غرفة ابنتها لتراها نائمة على سريرها بينما ارتدت نادية ملابسها استعدادًا للذهاب إلى مدرستها استوقفتها ساخرة

- وانتِ اسم النبي حارسك وصاينك بتتشمللي كدا ورايحة على فين لسَّا جاية من الشارع ومستعجلة ع السرمحة فيه تاني.

أشاحت بوجهها بعيدًا حاولت أن تتماسك وتختار كلماتها فهي تعلم زوجة والدها جيدًا فتلك البومة الواقفة أمامها الآن بارعة في أخذ كلمات منها وإعادة صياغتها حسب عقلها المريض لتنجح في تحريض والدها عليها إجابتها بهدوء

- رايحة المدرسة

- باستهزاء: مدرسة.. اقلعي يا اختي هي المدرسة هتطير ومين اللي هيساعدني في تحضير الأكل وتنضيف الشقة والغسيل المتلتل اللي مرمي في الحمام جوَّا دا مين اللي هيغسله ما تزعليش مني بس انا مش خدامة عند حد أنا أخدم جوزي وبنتي وبس غير كدا كل واحد يشيل نفسه

- طيب ممكن لما أرجع أساعدك

- باعوجاج: حكم... وأقول لابوكِ إيه ما تغيرش هدومك وما تلبسش نضيف وما تحطش لقمة في بوقك إلا لما الدكتورة ترجع، الله يرحم أيام زمان كنا ناخدها منازل وننجح ونطلع الأول، اقلعي يا حبيبتي وحصليني ع المطبخ.

تركتها وخرجت من الغرفة وهي تبرطم نظرت نادية إلى أختها النائمة لماذا لم تطلب زوجة والدها من ابنتها أن تساعدها لماذا يجب على زوجة الأب أن تكون بهذه البشاعة.. لا هل حقًّا تطلب من تلك السيدة أن تكون رحيمة بها وأن تفعل معها ما لم تستطع أمها التي أنجبتها فعله فلتصمت روحها عن محادثة نفسها هكذا لا مزيد من النحيب أو اللوم أو العتاب أو جلد الذات وانتظار ما لن يحدث فلتعش الواقع هذا قدرها!

كانت تشبه الشجرة ذات الأوراق الضعيفة التي لا تحتاج لريح عاتية كي تسقط وبجسم هزيل ويدٍ مرتعشة غير قادرة بدأت في تنظيف الشقة

مرت خمس ساعات من النهار لم تعد تشعر بساقيها كلما انتهت من شيء اخترعت لها زوجة والدها شيئًا آخرًا تفعله تأوهت بحركة مكتومة حين ضربتها على صدرها مأنبة إياها عندما تعثرت بجردل مياه متسخة وأراقت ما فيه على الأرض تناهى إلى سمعها ضحكات أختها الجالسة في الصالة تتناول إفطارها وهي تشاهد أحد الأفلام الكوميدية.

كانت تنظر إلى نادية من وقت لآخر بضيق مصحوب بعزة نفس لعدم اشتراكها في أعمال المنزل هي أصغر من نادية بسنة واحدة ولكنها لا تختلف عن أمها كثيرًا من حيث اللزوجة وقسوة القلب والجحود، اقتربت منها بتودد متسائلة:

- انتِ ليه ما رُحتيش المدرسة النهاردا؟

بلا مبالاة وبدون أن تنظر لها

- ماليش كيف

تلك الإجابة الحادة الباترة التي تقطع كل الطرق إلى صاحبها.. حاولت التقرب منها مرة أخرى:

- طيب عاملة إيه في..

قاطعتها بقرف ولكنها نظرت لها تلك المرة

- باقول لك إيه بدل ما تقعدي ترغي معايا خلصي بسرعة عشان تروحي تساعدي ماما

ثم عادت مرة أخرى لمشاهدة الفيلم في حين نظرت لها نادية بحزن أما يكفيها أن يكون العالم ضدها حتى تشترك أختها هي أيضًا في ظلمها.

كانت زوجة والدها تجلس مع جارة لها أتت لزيارتها وعندما رأت نادية تمر من أمامها لحقت بها ولكزتها في ذراعها مؤنبة

- انتِ يا بت انتِ اتعلمتِ الجليطة دي فين؟!

مستفهمة

- وأنا عملت إيه؟

- الولية اللي برًا من ساعة ما جات ما بلينا ش ريقها ببق مايه.. روحي حطي حتة جاتوه وصبي كوباية حاجة ساقعة وهاتيهم على صينية

- ست مين؟

- إحنا هنتصاحب..شهلي شوية

تركتها وخرجت مبرطمة فتحت نادية الثلاجة وأحضرت الصينية وكوب وقامت بتحضير ما طلبته ولحقت بها على حجرة الصالون اختطفت الجارة الصينية من يدها وبدأت بالتهام ما عليها بنهم نظرت لنادية التي قدمت الصينية وخرجت ثم عقبت قائلة:

- بركة يا اختي انها قاعدة معاكِ أهو تساعدك شوية في شغل البيت

- بتهكم: يا اختي لا بتساعد ولا بتنيل دي زي قلتها.. المهم وبعدين إيه اللي حصل؟

- ولا قبلين الواد أخوها أول ما سمع كدا قام جايبها من شعرها ونزلها الشارع بهدوم البيت وهاتك يا ضرب فيها قدام الناس وبرضه البت قادرة ما نطقتش بحرف واحد ولا قالت ع الواد اللي اتصورت معاه الصور الهباب دي لا وكله كوم واللي حصل للبت هيام بنت عاطف البقال كوم تاني.

- باستمتاع: إيه.. حصلها إيه؟

- البت هند بنت عم حسين وصاحبتها الروح بالروح اللي يشوفهم يا اختي كان يقول أكتر من الاخوات، لمؤاخذة كانوا عاملين زي الحتتين في لباس واحد البت هند لما شافت هيام اتخطبت وهي قاعدة زي اللمونة المخللة بعيد عنك يا اختي نار مسكت فيها هي وامها، قاموا عاملين لها عمل على دم حيض وسقتهولها بنت النجسة عايزة توقف حالها زي ما حالها واقف البت

يا عين أمها خست النص ووشها بقى أصفر كركم ما حدش بقى قادر يبص لها والخطوبة اتفسخت وحالهم بقى حال.

بحزن ونهنهة لا تليق بها وبقسوتها أبدت تعاطفها وتأثرها بدعوة:

- إلاهي يجازيهم البعدا ولاد الحرام.

دخل زوجها عائدًا من الخارج بمجرد أن رأته جارتهم حشرت في فمها ما تبقي من قطعة جاتوه كانت ممسكة بها في يدها ولملمت جلبابها مودعة

- استأذن بقى

- رايحة فين ما تكملي أكل

- ما علش ألحق أعدي على ام نوال كانت موصياني على حتة قماش أشتريهالها

- بدلال: واحنا مالناش نصيب في القماش دا؟!

- عيني يا اختي أجيب لك معايا لما آجيلك المرة الجاية

وكأنها انتبهت لوجوده

- ازيك يا ابو نادية

لكزتها زوجته في ذراعها ففهمت وصححت كلامها

- قصدي ازيك يا ابو سلمى

- بضيق: كلهم ولادي.. ازيك انتِ يا ام ندى عاملة إيه؟

- تعيش يا اخويا سألت عليك العافية.

- متهكمًا: ما تخليكِ قاعدة معانا للغدا.

- عامر بحسك يزيد فضلك يا اخويا بس ورايا مصالح أقضيها.. بالإذن

- إذنك معاكِ.

اصطحبتها زوجته إلى الباب بعبارات التوديع الشهيرة

- ابقي تعالي.. ما تتأخريش عليَّ.. لو رجليكِ جت الناحية دي ابقي عدي.

أغلقت الباب خلفها ثم لحقت بزوجها إلى غرفة النوم لتساعده في تغيير ملابسه وخلع حذائه بادرته بالكلام قبل أن يؤنبها كالعادة بالجلوس مع الجيران وتضييع وقتها الثمين في اللت والعجن بدلًا من توفيره لبيتها وزوجها وأولادها.

- بركة انك جيت لزقة يا اخويا بعيد عنك طول النهار إشي حاجة ساقعة وإشي جاتوه وشاي وقهوة وتفضل قاعدة لغاية ميعاد الغدا وعينيها بتبقى في الأكل اللي بنتسممه وبتقعد زي القاهر تطفح معانا ويا ريت على كدا وبس تجيب في سيرة فلانة وعلانة وهاتك يا رغي في ودن الواحد.. صدعتني بنت الذينَ.

- مش انتِ اللي عايزة كدا؟!

- أعمل إيه ما انت طول النهار في شغلك وسلمى في مدرستها بادور على حد يسليني بدل ما انا قاعدة زي قرد قطع باكلم الحيطة.

- أنا عايز أعرف حاجة بقى العيال عيالها دول بتوديهم فين وهي طول النهار بتتلطع في البيوت بالشكل دا.

- النهار بس دي رامياهم يا اخويا طول الليل والنهار بيلعبوا في الشارع ويقعدوا يلفوا ع البيوت يشحتوا من كل بيت لقمة.

- وفين الشحط جوزها ما يلمها شوية

- اسم الله على مقامك عامل زي حمار العربية الكارو تقول له يمين يمين شمال شمال.

- نهايته ربنا يجازيها على رميها العيال بالشكل دا.. نادية رجعت من المدرسة؟

- متهتهة: والله هي ما راحتش أصلًا.

- ليه إن شاء الله

- انت مشيت من هنا وهي راحت في النوم تاني بعد ما صحيتها انت الصبح حتى انا لما جيت أصحيها شخطت فيَّ قُلت انتِ مالك يا بت كل واحد عارف مصلحته فين سِبتها نايمة

- صبري اشتكالي برضه منها.. قصره حضري لي الغداء أحسن واقع من الجوع

خبطت على صدرها بافتعال

- يا لهووي عيني يا اخويا دقايق ويكون الأكل جاهز

* * *

على سفرة الطعام

جلست وهي لا تشعر بجسدها من كثرة الألم لم تعرف الراحة منذ بداية اليوم ولم تنتبه إلى ما يحدث حولها حتى تحدثت أختها

- بابا عايزة 100 جنيه

بذهول

- 100 إيه... 100 جنيه ليه؟

- فيه رحلة عاملاها المدرسة للاقصر وأسوان وعايزة أطلعها

- صرخ فيها بغضب: رحلة إيه وزفت إيه فوق دماغك ودماغ اللي خلفوكِ الامتحانات على الأبواب وانتِ بدل ما تقولي لي آخد درس ولا أحضر مراجعة لا عايزة تطلعي لي رحلة

- باعتراض: يا بابا هو أنا هامتحن لوحدي وبعدين كل أصحابي طالعينها تجاهلها وهو يتناول طعامه

- أنا ماليش دعوة بحد خلصي امتحاناتك وانجحي وبعد كدا نطلع مصيف واهو رحلة برضه.

نظرت لأمها في استجداء طالبة عونها تدخلت زوجته في محاولة منها لتعزيز موقف ابنتها بعدما وجدت نظرات الحزن على ملامح وجهها

- بتودد: وفيها إيه لما تطلع الرحلة مع أصحابها واهو تشم نفسها شوية وتنبسط

- بحزم: ما تشمه هنا هو أنا خنقتها، مافيش رحلات إلا لما تخلص الامتحانات ودا آخر كلام عندي واقفلي ع السيرة دي بقى خليني أتسمم اللقمة

نظرت بحقد لوالدها وغادرت السفرة مبرطمة

- مش واكلة

- أحسن وفرتي

لم تجد سوى نادية أمامها لتنغص عليها طعامها قالت بأسلوب شاكٍ كنوع من تلقيح الكلام

- أنا مش عارفة يا اخويا أنت بقى خلقك ضيق كدا ليه ليك حق الحمل تقل قوي

ثم نظرت إلى نادية التي لم ترفع عينها عن طبقها ولم تعقب على سمومها التي اعتادتها.

* * *

كانت الحديقة بسيطة خالية تقريبًا من الناس وفي أحد أركانها جلست مريم ومحمد متشابكي الأيدي والنظرات، صامتين حتى فاجأها قائلًا:

- مريم... لازم يبقى في نهاية لعلاقتنا دي

بأيدٍ مرتعشة وقلبٍ يخفق وصوتٍ مبحوحٍ خائفٍ سألته

- نهاية.. نهاية إيه؟.. قصدك تسيبني.. عايز تبعد عني؟!

- يطمئنها: الموت أهون لي وانتِ عارفة كدا، أنا أقصد نتجوز

انتفضت بعدم تصديق

- جواز.... انت مجنون! انت بتقول إيه؟.

- أومال كنتِ فاكرة اننا هنقضي حياتنا كدا وبعدين فيها إيه أنا عن نفسي أعرف مسلمين كتير اتجوزوا مسيحيات ويهود كمان.. الدين دلوقتي ما بقاش مشكلة بين أي اتنين بيحبوا بعض، فوقي يا بنتي احنا في القرن العشرين.

نظر لعينها ليرى الخوف والفرح والضياع والترقب والقلق فأحب أن يطمئنها

- المسلم ممكن يتجوز مسيحية والأولاد بيطلعوا على ديانة أبوهم وانتِ ممكن تفضلي على دينك أنا مش هاجبرك على حاجة.

- صمتت قليلًا: هتدخل في حرب انت مش قدها

- بتأكيد: لا حرب ولا حاجة، أهلي مقدور عليهم اتكلمي انتِ بس مع أهلك وشوفي رأيهم وحاولي تقنعيهم زي ما أنا أقنعتك كدا

نظرت له بحنان واحتضنت وجهه بين يديها، اقترب منها مداعبًا

- مقنع أنا مش كدا؟

- حد قال لك قبل كدا إنك مجنون

- ابتسم لها: كتير قوي ما تعديش دول هيضيفوها لي على البطاقة وبعدين مجنون يحبك أحسن من عاقل يبعد عنك ولا إيه؟

وضع جبهته في جبهتها وذاب في ابتسامتها

* * *

تمدد على السرير في وضع نصف نائم وهو يقرأ الجريدة بينما انزلقت نظارته الطبية على أرنبة أنفه حين كانت زوجته تفتش في دولابها وتفتح أدراجه وتفرغ ما في شنطتها تبحث عن شيءٍ ما وهي تحدث نفسها

- يعني هتكون راحت فين دي كانت لسَّا قدامي امبارح

رفع رأسه عن الجريدة بتساؤل

- هي إيه دي؟

- السلسلة الما شاء الله اللي كنت جايبهالي عيد ميلادي اللي فات ضاعت ومش لاقياها

- طيب دوري كويس يمكن رامياها هنا ولا هنا

- دورت في كل حتة ما سيبتش حتة في البيت إلا ما دورت فيها شايف المصايب اللي بتجي لي من تحت رأسك

- بتعجب: وانا مالي أنا بقى هو أنا اللي قُلت لك تضيعيها

- باعوجاج: لا يا اخويا بس جبت لي اللي يضيعهالي

- باستغراب: قصدك إيه؟

- قصدي واضح زي الشمس.. نادية بنتك

- مدافعًا: لا انتِ دماغك راحت لبعيد قوي.. نادية بنتي ما تسرقش أبدًا

تدخلت سلمى التي كانت تسترق السمع من خارج الغرفة اقتربت من والدها تبخ سمها الذي ورثته عن أمها وضعت عينها في الأرض كي تتقن دورها جيدًا ثم قالت له:

- والله يا بابا فيه حاجة كدا حصلت امبارح وانا مش باحب أفتن بس لازم تعرفها نادية جت سألتني عن كريم للشعر فقُلت لها هتلاقيه على تسريحة ماما وهي خارجة من الأوضة كان شكلها مرتبك قوي ومن ساعتين شفتها وهي بتخبي حاجة جوَّا شنطتها اللي في الدولاب.

نظر لها بعدم تصديق فيما اقتربت زوجته لتكمل ما بدأته ابنتها

- مش قُلت لك هي اللي سرقتها

- دلوقتي تلاقيها وتعرفي إنك ظالماها، اللي حكته سلمى مش دليل

- كدا.. طيب تعالى معايا وانت تشوف بعينيك

سحبته من يده وخرجت به من الغرفة، تبعتهم سلمى مبتسمة بشماتة دخلت زوجته مثل الإعصار لتجدها ممسكة بأحد الكتب نظرت لها بقرف ثم اتجهت ناحية الدولاب وأخرجت جميع ملابسها وألقتها على الأرض ظهر مبلغ ستة ورقات فئة المائة جنيه بين الملابس جمعت المبلغ ونظرت لزوجها وهي تلوح له في انتصار

- ها.. إزاي الحال ما تسرقش أبدًا مش كدا اسأل بنتك جابت الفلوس دي منين

مرت اللحظات ثقيلة عليها وهي تحاول السيطرة على نفسها قبل أن تتحدث متسائلة باستغراب:

- إيه الفلوس دي أنا ما اعرفش عنها حاجة؟

صرخت بها زوجة والدها

- استعبطي يا بت استعبطي خشي في عبي، إيه رأيك بقى أنا مش عايزة السلسلة اللي سرقتيها أنا عايزاكِ تغوري من بيتي وما اشوفش خلقة أمك هنا تاني.

- بعدم تصديق: سلسلة..سلسلة إيه؟

تجاهلتها ووجهت كلامها إلى زوجها في تهديد واضح منتهزة للفرصة

- باقول لك إيه أنا زهقت منها ويا ريت يا أخويا بتساعدني في حاجة إلا دي طول اليوم نايمة على ضهرها وأنا اللي باخدمها لكن توصل للسرقة أهو دا اللي ما اقبلوش وديها لعمها يا أخي ولا تروح تشوف أمها اللي راحت تتسرمح مع الرجالة ورامياها لنا زي الرمة، خرجها برًا بيتي يا والله يا محمود ما أنا قاعدة لك في البيت دقيقة واحدة.

تركته وخرجت مبرطمة لحقت بها ابنتها وهي تنظر إلى نادية بفرح وشماتة بينما اكتفى والدها بما حدث ولم يقل سوى كلمتين باقتضاب.

- لمي هدومك.

ثم تركها وخرج اللعنة على أمها وعلى كل أم تركت ابنتها في هذا العالم الغاشم وملعون والدها أيضًا الذي فضل إرضاء هذه الحرباء وابنتها على التحقق من صدق كلامهم أو كذبه.

لم تشعر بما حدث في الساعات التي تليها سوى بوالدها وهو يسحبها من يدها ويسير بها في الشوارع لم ينظر لها أو يرق إلى دموعها التي أحرقت عينيها وملأت وجهها وحجابها وملابسها وربما الأرض ومن عليها حتى توقف بها عند منزل عمها ولأول مرة تنطق منذ خروجهما محاولة الدفاع عن نفسها للمرة الأخيرة

- أنا ما سرقتش حاجة يا بابا.. صدقني

- تجاهلها: يلا اطلعي بسرعة.

دخلت المنزل في انكسار بينما تنفس هو بارتياح بعدما تخلص منها.

* * *

من أمام جامع الأزهر الشريف

خرجت مظاهرات بعد صلاة الجمعة لمجموعة مصليين تجاوز عددهم الألف وهم يهتفون

- عار عليكم يا مسلمين.. حد فيكم يبقى سجين

بينما رفع آخرون أعلامًا كتب عليها

بسم الله الرحمن الرحيم

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ"

صدق الله العظيم

كان الأمن المركزي على بعد خطوات منهم تحدث أحد الضباط إلى قائده عبر اللاسلكي مستفهمًا

- نخلي الأمن يتعامل معاهم يا أفندم؟

جاءه الرد سريعًا وحاسمًا

- لأ لأ مش عايزين مشاكل كدا الموضوع هياخد أكبر من حجمه سيبوهم هما شوية هيزهقوا ويمشوا.

على الرصيف المقابل كانت السيارات تجري بسرعة شديدة تجنبًا لتعطل السير بسبب تلك المظاهرات وقف أحد شيوخ الأزهر والذي قد تجاوز الخمسين من عمره كان يرتدي جلبابًا وعمامة والشمس تغطيه من رأسه حتى أقدامه حاول إيقاف تاكسي ولكن بدون فائدة فالجميع كان يتسابق للنجاة من توقف سير محتمل وشمس حارقة لن ترحم من يقف تحتها في مثل هذا الوقت ظل على هذا الحال قرابة النصف ساعة حتى تجاوزته سيارة بها قس مر من أمامه وما إن لمحه حتى توقف فجأة وعاد إليه مرة أخرى، اقترب الشيخ من شباك السيارة مستفهمًا بادره القس مبتسمًا

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

- متسائلًا: طريقك منين يا عم الشيخ؟

- السيدة عائشة بس ولا تاكسي راضي يقف شوية كدا وربك يكرم

- طيب تعالي أوصلك دي نفس سكتي

- الله يبارك فيك بس مش عايز أعطلك

- لا عطلة ولا حاجة طريقنا واحد دي العربية هتحصلها بركة

فتح باب السيارة وركب بجواره في ارتياح لنجاته من الشمس ورحمة لقدمه التي صرخت طالبة الراحة، نظر حوله يتأمل السيارة التي يبدو عليها شيء من الفخامة وضع بها الإنجيل وعلق بها صليبًا بينما رسم على الزجاج

الخلفي صورة للعذراء بفستانها الأزرق وغطاء وجهها الأبيض الملائكي وهي تحمل رضيعها، قاطع القس تأمله:

- عاجبك اللي بيحصل في البلد دا يا عم الشيخ؟

- المفروض انت اللي تجاوبني على السؤال دا

- مش هادافع عن حد بس مش المسيحيين اللي يخطفوا ويعذبوا عشان عددهم هيقل واحدة ولا اتنين

- إذا كان كدا البنت بتاعت امبارح دي راحت فين دي اختفت بعد ساعات من إسلامها

- للإسف في موضة طالعة جديدة اليومين دول كل واحدة عايزة تخلص من جوزها تهدده بدخول الإسلام وبيني وبينك دا حقيقي وبيحصل لإن زي ما انت عارف ما عندناش طلاق، دا حتى تغيير الملة لغوه وبعد إسلامها بتروح تعيش عند أهلها وبيبقى سبب تغيير دينها واضح ومعروف لأهلها والكنيسة بس للأسف مش معروف ليكم كمسلمين والنتيجة زي ما انت شايف كدا بيتهمونا إننا خطفناها وعذبناها وأجبرناها ترجع للمسيحية تاني.

- لا حول ولا قوة إلا بالله يعني البلد تولع عشان واحدة مش طايقة جوزها طيب ما دام انت قررت تكون صريح معايا كدا خليني أتجرأ واسألك ما هو برضه فيه اللي بيدخلوا الإسلام ولا متجوزين ولا أي حاجة وبرضه بيتخطفوا

- بدفاع: حتى لو دا حصل دي تصرفات فردية الخطف والإجبار على دين معين دا تعصب أعمى، الكنيسة عمرها ما تباركه.. إحنا كمان زيكم عندنا اللي بيدعو للوسطية والاعتدال اللي خلى ملحدين يعيشوا بيننا، إحنا مش هنعرف نعيش مع بعض.

- طيب ليه ما يبقاش عندكم تعديل في قوانين الطلاق والجواز تقدروا تجنبونا وتجنبوا البلد والأجيال اللي جاية من الفتن دي

- مبتسمًا: يا عم الشيخ.. يا عم الشيخ الفكرة مش في الطلاق ولا في الجواز المشكلة فينا إحنا اللي بنتعامل مع اللي بيحصل كمسلم ومسيحي لو بنت مسيحية أعلنت إسلامها أو حصل العكس لأي سبب بقى مش هندخل في النوايا ساعتها لا المسلمين ولا المسيحين نفسهم يتدخلوا كل واحد حر في نفسه دا حتى الدستور بيكفل حرية الدين لأي فرد والدولة مجبرة إنها تحمي الفرد دا من أي تهديد عليه.. يا عم الشيخ معظم اللي بيحصل بيننا دا سببه ناس ماسكة البلد وشوية رجال أعمال من مصلحتهم إننا نخبط في بعض عشان ينهبوا ويسرقوا من خير البلد براحتهم.. عارف أنا نفسي في إيه؟

- إيه؟

- نفسي نعالج مشاكلنا بنفسنا من غير تطبيل ولا نفاق ولا ادعاء، إحنا لا محتاجين أفلام ولا أغاني عن الوحدة الوطنية مصر كبيرة واحنا كبار بيها وعشانها.

- المفروض كمان شيخ الأزهر والبابا يتدخلوا

- قاطعه: الكنيسة مالهاش وصاية على حد وبعدين هو لازم يكون فيه حادثة زاوية حمراء تانية عشان يتحركوا، أغلب الفتن بتبقى على حاجتين يا حتة أرض يا واحدة أسلمت عرفنا المرض فين ندور بقى على العلاج مش كل مرة هيطلع الرئيس ويقول شوية مايه لغسيل وسخ هما السبب مش كل مرة نخيط على الجرح قبل ما ننضفه، فيه إيد خفية بتلعب بأمن البلد دي ودا مدخلهم ربنا يلعنهم ويحفظ مصر مسلمين وأقباط.

- آمين يا رب.. أيوة هنا على جنب متشكر قوي وكتر ألف خيرك.

- بسماحة: العفو، على إيه؟! في رعاية الله وأمنه.

بعد نزوله من السيارة ينظر من الشباك مبتسمًا للقس

- على فكرة لما شفت المظاهرات النهاردا قُلت عليه العوض في البلد دي لكن بعد ما اتكلمت معاك اتأكدت إن كل دا هيعدي واحنا برضه جنب بعض طول ما فيه زيك من أهل الكتاب

- ابتسم القس: وطول ما فيه زيك من الدعاة الصالحين.. مع السلامة.

- في أمن الله ورعايته.

ابتعدت السيارة في حين لم يكف الشيخ عن التلويح له مودعًا والدعاء له بالوصول سالمًا.

* * *

بعدما ذهب والدها لم تصعد إلى شقة عمها كما طلب منها بل عادت مرة أخرى إلى الشارع، سارت على غير هدًى لا حول لها ولا قوة، لم تدرِ في أي اتجاه ذهبت أو في أي منطقة هي موجودة أو كم مر عليها من أيام، لقد حل النهار مرتين والليل ثلاث مرات وهي تسير هائمة على وجهها لم تستمع لنداء أقدامها التي صرخت في رجاء طالبة منها الرحمة والراحة.

نظرت إلى نعل جزمتها الذي كان يعبر عن ثورة عارمة لتغييره بينما أعلن الشراب عن انتفاضة حرة لم يخرج فيها سوى إصبع واحد معلنًا استقلاله ليعترض ويشجب عما يحدث، ذراعها بدأ يؤلمها من حمل تلك الحقيبة اللعينة ومعدتها تطالبها بالطعام، مرت من أمام مطعم نظرت للطعام باشتهاء، مدت يدها لا إراديًّا إلى جيوبها وهي تعلم مقدمًا أنها خاوية ولكنه ذلك التعلق بالأمل الذي يراود تائه في صحراء بأنه وجد بئر ماء وهو يعرف أنه سراب.

بعد خطوات منها وجدت شابًّا وفتاة يلقون ما تبقى من طعامهم بجانب الرصيف، انتظرت ابتعادهم ثم قطعت تلك الخطوات التي تفصلها عن الطعام جريًا ولكن سبقتها يد أخرى لفتاة في مثل عمرها تقريبًا يغلب على مظهرها الفقر والجوع، ظهر هذا من الجلباب القديم الذي كانت ترتديه والرقعة التي عرَّفت عن نفسها جيدًا وشعرها الذي اتخذت كل خصلة فيه

اتجاهًا معاكس للآخر، لم تستحم منذ أشهر وربما سنوات وهذا واضح من رائحتها

- بسيطرة: دا نصيبي أنا اللي وصلت الأول.

قضمت قطعة من الطعام وتركتها ثم سارت خطوات مبتعدة عنها توقفت ونظرت خلفها تجاه نادية ثم عادت إليها مرة أخرى بادرتها متسائلة:

- انتِ جعانة؟

لم تجِبها فقط اكتفت بهز رأسها أن نعم وهي تنظر للطعام بنهم أعطت لها الفتاة ما تبقى وأجلستها على الرصيف وجلست بجوارها، نظرت إليها بشفقة وهي تأكل بادرتها:

- انتِ اسمك إيه؟

- رفعت رأسها عما في يدها: نادية.. وانتِ؟

أنا فتحية قولي لي توحة.. انتِ ساكنة فين؟

- بعد تفكير: مش ساكنة في حتة كنت عايشة مع عمي وطردني

- طيب أبوكِ ..أمك.. أي حد من أهلك؟

- بتأكيد عما في نفسها: ما فيش.. كلهم ماتوا من زمان.

- يعني ما عندكيش مكان تنامي فيه

أشارت برأسها نافية سحبتها فتحية من يدها

- طيب تعالي معايا

ترددت نادية في الذهاب معها في حين طمأنتها الأخرى

- تعالي ما تخافيش

لم تعلم كم مر عليها من الوقت وهي تسير خلفها حتى وصلا إلى منزل ملحق به "بدروم" يستخدم كمخزن، كانت ترتجف من الخوف وهي تسحبها إلى الداخل، تفاجأت بوجود فتاتين تفترشان الأرض نظرا إليها باستغراب هم في مثل عمرها تقريبًا ربما أكبر بسنة لم تستطع التحديد فقد كانت نظراتهم تحمل كثيرًا من الخبرة الواسعة في الحياة فتلك العيون ليست بريئة على الإطلاق، حيتهم فتحية وهي تضع حقيبة نادية في أحد الأركان.

- إزيكم يا بنات أعرفكم بالوجه الجديد، نادية هتقعد معانا هنا

أشعلت إحدى الفتيات سيجارة ثم وجهت كلامها لفتحية وهي تنظر تجاههما بلا مبالاة.

- ودي إيه اللي انتِ جايباها معاكِ دي؟! هي المشرحة ناقصة قتلة؟!!

أحضرت فتحية أحد الصناديق الخشبية وأجلست نادية عليه وهي تهمس لها

- ما تاخديش على كلامها هي لسانها متبري منها، بس قلبها طيب والله، أعرفك عليهم دي بسمة.

أشارت للفتاة ذات السيجارة وأكملت:

- بعد ما أمها ماتت خالها خد الشقة ورماها في الشارع، تخيلي إن هو نفس الخال اللي أبوها مات في خناقة عشانه.

- ثم غمزت لها: اتقِّ شر من أحسنت إليه

أشارت لها بسمة بسخرية وضربت لها تعظيم سلام بيدها التي تحمل السيجارة كنوع من الترحيب بينما أكملت فتحية التعريف بالفتاة الأخرى التي لم تهتم ببرنامج التعريف وتبادل الصداقات الذي يحدث حولها بل اكتفت أن اختطفت السيجارة من يد بسمة ودخنتها باستمتاع.

- ودي بقى مروة الوحيدة فينا اللي صاحبة صنعة وهي اللي بتصرف علينا تقريبًا

- متسائلة بسذاجة: صنعة إيه؟

نظرن إلى بعضهم الثلاثة ثم انفجرن ضاحكات وسط نظرات نادية المتعجبة فسؤالها لم يستدعِ كل هذا الضحك من وجهة نظرها، تطوعت فتحية لكي تشرح لها

- بيقولوا على اللي زيها بنت ليل

ردت عليها مروة باستهزاء

- بنت ليل بنت نهار شغلانتنا ما لهاش مواعيد ولا وقت بالإنجليزي ALL THE TIME

- طيب ليه؟

تلك المرة ردت عليها مروة بجدية

- من غير ليه مش لازم يكون لي حدوتة عشان أعيش فيها دور الضحية باختصار أب عايز يبيع وأم مغلوبة على أمرها بيعة ببيعة وبدل ما اتجوز واحد قد جدي لا يبقى أبيع أنا وأقبض التمن من غير ما حد يشاركني فيه ثم عادت لتشعل سيجارة أخرى، نظرت لهم نادية بنوع من العطف على حالهم جميعًا ظلت تقنع نفسها طوال سنوات أنها ضحية ومجني عليها وأن الجميع تكاتف واجتمع على عقابها وظلمها هي فقط عمن حولها وأن القدر لم ينصفها قط لم تكن تعلم أن هناك من يعاني مثلها، فجأة لم تعد ترى جيدًا فدموعها حجبت عنها العالم والرؤية صارت ضبابية.

* * *

نظرت للمرآة للمرة المائة لتؤكد على ما في نفسها كانت تعلم أنها ليست جميلة بل هي أقرب لسحلية عاقر في الأربعين من عمرها سوف تبور بضاعتها كلما تقدمت في السن، من ذا الذي يريد الزواج بمطلقة لا أحد يرغب في استعمال بضاعة مستهلكة وهذا ما جعلها تسلم نفسها إليه كان يومًا ملعونًا عندما ذهبت لتعطي دروسًا لابنته سارة في كل مرة كان ينظر لها كانت تقف أمامه عارية نظراته تجردها من ملابسها، اعتاد النظر لصدرها وجسدها في وقاحة ظاهرة وعيناه التي تحمل في كل مرة دعوة صريحة إلى أقرب سرير موجود وهذا ما حدث!

والآن عليها أن تصلح ما أفسده هذا الحيوان تلك الليلة.. لم تشعر سوى بنفسها وهي تطلب رقم منزله جاءها الرد سريعًا كانت تلك سارة ابنته حاولت تغيير صوتها كي لا تتعرف عليها

- منزل الأستاذ صبري عواد؟

- أيوة يا أفندم

-طيب ممكن أكلمه لو سمحتِ

- حاضر.. دقيقة واحدة

لم تنتظر كثيرًا حتى سمعته يجيب، لم تعلم من أين تبدأ أو ماذا تقول له خانتها أعصابها وارتعشت يدها ولكنها استجمعت ما تبقى لديها من قوة فمصير سمعتها وسمعة عائلتها متوقف على تلك المحادثة كان يحدثها برقة

ومحبة مبالغ فيهما إلى أن أخبرته بحملها وكأنه كان ينتظر أن تنهي كلامها لكي ينقض عليها كما ينقض ذئب على فريسته أفضل الشياطين من يقنعك أنه ملاك تلك الحقيقة التي تجلت لها الآن

- نعم يا اختي حامل.. كدا على طول من أول مرة.. دا أنا حتى ما طولتش معاكِ.

- صرخت فيه: هو بالمرات انت وعدتني يا صبري.

- أنا ما وعدتكيش بحاجة يا روح أمك ما هو لو بنت كانت تبقى أول مرة وأعرف إن اللي في بطنك دا يخصني إنما دا انتِ تلاقيكِ مقضياها خدمات شعبية دا انتِ ما خدتيش في إيدي خمس دقايق وبعدها ريلتِ عليَّ.

- قاطعته صارخة: اخرس يا ابن الكلب يا حيوان أنا أهلي يقطعوك ويرموا لحمك لكلاب الشوارع باقول لك إيه أنا مش عضمة سهلة زي ما انت فاكر دا أنا أروح القسم ويعرضوني على الطب الشرعي واوديك في ستين داهية.

عندما وجدته صامتًا يستمع لها ظنت أنه تراجع بعد تهديدها له هي لا تريد من هذا الكلب سوى اعترافه بنسب ما في بطنها له ثم يذهب بعدها للجحيم إن شاء الله، فكرة التخلص من الطفل مستحيلة تلك فرصتها الأخيرة لتصبح أمًّا قالت بهدوء:

- اسمعني يا صبري كدا كدا هنتجوز واللي في بطني هيتنسب لك فبلاش أقسام ومحاكم وشوشرة وبعد اللي انت قُلته دا أنا اللي ما باقيتش عايزاك

ومش عايزة منك حاجة هنتجوز هو يوم واحد وبس وبعدها تروح لحال سبيلك مش عايزة منك حاجة.. ها قُلت إيه؟

بعد تفكير لم يدم طويلًا كان قد وصل خلاله إلى فكرة تخلصه من تلك البومة وما تحمله داخل بطنها

- قابليني في الشقة القديمة الخميس اللي جاي عشان نكتب بس هو يوم واحد وهاطلق تاني يوم.. مفهوم

- بفرح: طبعًا أنا مش عايزة منك أكتر من كدا

- سلام دلوقتي

- سلام

وضعت السماعة وهي تتنفس الصعداء غير مصدقة أنها نجحت في إجباره على الزواج منها وبالتالي الاعتراف بابنها بينما ابتسم هو عندما تذكر فكرته الشيطانية التي ستخلصه من تلك الورطة بأسهل مما يتخيل!

* * *

استيقظت من نومها على صوت والدها يتحدث متمتمًا من عدم التصديق

- يا بركة العدرا.. يا بركة العدرا

نظرت لوالدتها التي اكتفت بهز رأسها مؤكدة على كلامه ثم اقتربت منها مستفهمة:

- هو فيه إيه؟..... أجابتها والدتها في فرح

- أم أنجيل بعد ما الدكاترة قالولها الكبد اتليف ومافيش منه رجا تاني وان قدامها شهور جات العدرا وهي نايمة امبارح عملت لها عملية وسابت مكان الجرح علامة صليب والست قايمة تجري زي الحصان.

- ضحكت مريم بسخرية: طيب كويس ما حدش بقى يتريق بعد كدا على المسلمين لما يقولوا إن محمد طلع السما على بغلة.

تفاجأ والديها من رد فعلها هذا حتى أنهما تطلعا لبعضهما مستفهمين

- بتصميم: بابا أنا عايزاك في موضوع.

دخلت حجرتها ولحق هو بها وأغلق الباب خلفه لم تمر دقائق حتى شعرت بصفعة قوية على وجهها ردًا على ما قالته أعقبها صوت والدها وهو يصرخ

- مسلم.. ليه من قلتنا؟

- أنا باحبه وعايزاه وهو قالي إني هافضل على ديني زي ما أنا وبعدين ما أمي كانت مسيحية وأسلمت ونطقت الشهادة بتاعة المسلمين.

- بتلعثم: أمك أسلمت عشان حاجة معينة ورجعت تاني لديننا

- بانفعال: ماما مكنش عندها دين أصلًا عشان ترجع له الست اللي تغير دينها وعقيدتها عشان سبب تافه زي اللي بتسيبك عشانه تبقى ست ما عندهاش دين تحترمه لما تحب تخلص منك تعلن إسلامها ولما ترضى عنك ترجع تاني هو دا الدين؟

سحبها من شعرها وهو يصرخ فيها غير مصدق ما تقوله:

- إيه كمان؟ علمك إيه كمان الواد دا؟ قال لك إنهم ملايكة واننا شياطين ما بنحترمش ديننا والمسيح الحي يا مريم لو قابلتي الواد دا تاني ليكون آخر يوم في عمرك.

ثم اقترب من أذنها مؤكدًا

- وعمره هو كمان

تركها تفلت من يده وهي ترتجف في خوف واضح ثم خرج وأغلق الباب خلفه بعدما ألقي عليها نظرة ما زالت تحمل عدم التصديق من هذا البلاء الذي هبط عليه من السماء

* * *

جلسا فوق سطح مخزن مهجور بعدما أعدت فتحية الشاي لهما على "سبرتاية" شبه هالكة نظرت إلى نادية بتأثر وشفقة عليها بعدما حكت لها الأخيرة عما مرت به في حياتها

- متنهدة: يااه دا انتِ جبل على كدا وأنا اللي كنت فاكراها ملطَّشة معانا إحنا بس، أنا بقى يا ستي اتربيت في ملجأ لا أعرف أم ولا أب زهقت من الهدوم المقطعة اللي كانوا بيشحتوهالنا واللحمة اللي ما نعرفش شكلها إلا من التلفزيون وحياتك انتِ يا اختي كانت بتيجي لغاية باب الأوضة وريحتها تهفهف كدا وما ترضاش تدخل أقعد ليه بقى؟ المستقبل ما شاء الله أسود في أسود لا تعليم ولا جواز كانوا بيضحكوا علينا ويقولوا لنا التعليم زي قلته وان اللي اتخرجوا من الجامعة مرميين على القهاوي مستنيين شغل زي البايرة اللي مستنية العدل.

الحسنة الوحيدة اللي عملوها فينا وخدوا ثوابها مننا تالت ومتلت هي الصنعة اللي اتعلمناها في الملجأ الغزل والنسيج كنت أجدع من أجدعها أسطي كان شغلي دا بيجيب دهب حار ونار في جتتهم وبالنسبة للجواز ما كنتش عاتلة همه كدا كدا مش هييجي الفارس اللي راكب حصان ولا حتى حمار أعرج بالعقل كدا بنات الناس اللي عندهم عيلة وشهادة ووظيفة بيعنسوا يبقى أنا هاتجوز اللي زينا يا نادية لا ليهم ماضي ولا حاضر ولا مستقبل بنبقى معروفين وسط الناس على إننا ولاد زواني واللي مش هيقولها في وشك هيقولها في ضهرك.

ما هو بالعقل كدا ما حدش هيرمي عياله في الشارع غير لما يكونوا جايين كدا يبقى اللي هيتجوزني هياخدني على إيه؟ زكاة ولا ذنب يكفر عنه دا طبعًا غير

قلة القيمة شخط ونطر وضرب ما كانوش يمدوا إيديهم عشان ما تتوسخش خرطوم الحمام كان بيقوم بالواجب قمت قُلت ما بدهاش خدت بعضي ومشيت في ملكوت الله.

كسر حديثهما صوت صراخ يأتي من المخزن هبطا سريعًا ليجدا مروة تتلوى من الألم وهي ممسكة بأحد ذراعيها تطلعت نادية إلى فتحية في فزع

- هو فيه إيه.. هي مالها؟

طمأنتها فتحية وهي تلف ذراعها حول كتفها مطمئنة

- ما تخافيش دلوقتي هتبقى كويسة.

نظرت بتساؤل إلى بسمة التي كانت تحمل في يدها حقنة.

- حقنة إيه دي؟

ردت عليها بسمة بإستهزاء متعجبة من سذاجتها معتقدة أنها تتصنع البراءة.

- دي يا اختي حقنة اللي يروح ما يرجعش تحبي تجربي؟

ثم اقتربت من مروة وأعطتها الحقنة وبمجرد أن سرى السائل في عروقها توقفت عن الأنين والألم.

بعد فترة تمددت نادية بجانبها نظرت لها بعطف وهي نائمة، ابتسمت نصف ابتسامة من سخرية القدر أن تشفق على إنسان في حين هي نفسها تحتاج إلى من يشفق عليها.

لم تمر لحظات واستغرقت في سبات عميق، كان جسدها جائعًا للراحة، استسلمت للنوم مثل خرقة بالية رافقها عار أمها حتى في أحلامها كانت تنتقل بين أحضان رجال لم ترَ ملامحهم جيدًا وهي سعيدة ضحكتها لم تفارق وجهها بينما كان والدها سجين قفص حديدي لم يستطع الخروج منه وعلى بعد خطوات وقف عمها وهو ينظر إليها تعلو وجهه نفس نظرة الاشتهاء والرغبة التي اعتادتها منه.

زمن مر عليها قبل أن تفيق على قدم تلكزها فتحت عينها لترى الغرفة مليئة برجال شرطة ملثمون وهم يصوبون سلاحهم تجاهها هي ومن معها.

* * *

مقهى بلدي في حي شعبي يبدو عليه الفقر الشديد، الزبائن ملابسهم رثة ملامحهم منهكة يلعبون الطاولة ويدخنون الشيشة بينما تصاعد الدخان وكوكب الشرق في تنافس أي منهما يملأ المكان أكثر من الآخر.

- انت يا زفت الطين يا سخام البرك.

كان هذا أحد أصدقاء محمود عواد الجالسين معه متفاخرًا وهو يظهر تفوقه في الفوز بدور الطاولة، رجل أربعيني ضخم الجثة ذو وجه منفوخ يتدلى منه شارب، يمتلئ حديثه بألفاظ وحكايات جنسية عن فحولته التي يتخيلها وهو جالس بين أصدقائه يشبه رجالًا مصريين كثُر تجلس على المقاهي ولا تهتم بشيء قدر اهتمامها بالجنس، حالة يفسرها بعض الأطباء النفسيين بأنها نتيجة ضعف الشخصية وانعدام الثقة بالنفس وربما أيضًا دليل صريح عن إصابة صاحبها بضعف جنسي، محاولات يائسة لإثبات رجولة ضائعة ومجد زائف وشباب هرم منذ سنوات حاول أحد الجالسين تغيير محور الحديث لتقززه من هذا الشيء وما يتحدث عنه.

- النهاردا وأنا نازل من البيت سمعت أجراس وترانيم خارجة من الشقة اللي قدامي أصل اللي ساكنين فيها جماعة مسيحيين قابلت الراجل صاحب الشقة على السلم وعيني جت في عينه والمصحف ما كنت عارف أهنيه ولا أعمل عبيط دا حتى سلام ربنا من لخبطتي ما رميتهوش ونزلت أجري.

تدخل شخص آخر ناقمًا على هذا الحديث

- يعني هي أم الأسئلة الحمضانة بتاعت كل سنة بقالنا قرن بنعيد ونزيد فيها ما بنزهقش الناس طلعت القمر وعملوا ثورة في العلم والطب واحنا هنا لسَّا بنسأل نهي المسيحيين بعيدهم ولا لأ.. يا أخي ما عن أمك ما هنتهم انت يعني شايفهم موقفين الاحتفالات والقداس على أم التهنئة بتاعتك.

تدخل آخر مدافعًا

- طيب ما هو برضه عنده حق إزاي تهنيهم بعيد قيامة آله انت وعقيدتك مؤمنين إنه مجرد نبي ورسول وتهنئتك دي اعتراف منك بعيدهم وإلاهم ودا ضد دينك وإسلامك ويعتبر كفر كمان.

- باعتراض: خلاص كفرتني وأنا قاعد؟

تدخل آخر لفض النزاع بينهما

- اقفلوا يا جماعة على الموضوع دا والكلام فيه لكم دينكم ولي دين

- ما هما بيرجعوا يشتكوا إنهم مضطهدين وبنعاملهم وحش

- والله ما فيش حد في البلد دي مش مضطهد العلاوة التسعة جنيه اللي المفروض تتصرف لي بأثر رجعي لسَّا ما اتنيلتش اتصرفت، اضطهاد دا ولا مش اضطهاد؟! وبعدين احنا كل ما نتلم اللمة دي نقعد نتخانق ونتجادل

تدخل محمود عواد لأول مرة في الحديث وهو يرمي بقطع النرد.

- والله يا جماعة طول ما احنا بنفكر بالشكل دا اللي برَّا هيقسمونا أكتر ما احنا متقسمين.

تحدث مدعي الفحولة مرة أخرى حزينًا لابتعاد الحديث عن محور رجولته

- وهي اللمة إيه غير أنا وانت وشوية ناس ميعرفوش بعضهم اختلفوا في كل حاجة واتفقوا على حجرين وبعدين مصر مش عزبة أبوهم عشان يقسمونا طيب خلي حد ييجي كدا ناحية الحدود وانا أخصي أمه.

أطلق بعدها صوتًا بأنفه مصحوبًا بضحكة تدل على سيطرة تامة

- يا ابني هي خناقة في عركة الحرب دلوقتي ما بقيتش زي الأول حرب مدافع ودبابات دلوقتي عايز تحكم أي بلد ازرع فيها الفتن مبدأهم فرق تسد وبعدين بص حواليك وانت تعرف إن الناس دي ما بتهزرش.

في الأول قسموا مصر والسودان وبعدها قسموا السودان شمال إسلامي وجنوب مسيحي ودارفور اللي عايزين يفصلوها نهائيًا ويمسحوها من على الخريطة عشان يبلعوا الدهب والبترول اللي فيها وبعد كدا دورنا هييجي واحد ورا التاني وبلد ورا التانية يفضلوا يقسموا فينا ويتفرجوا علينا واحنا بنولع في بعض وفي الآخر يدخلوا على الجاهز بحجة الحفاظ على السلام وفض المنازعات ياخدوا البلد بعد ما نقدمها لهم على طبق من دهب ومن غير نقطة دم واحدة من عندهم.

- يا ساتر إيه الغم دا ما تغيروا يا جماعة الكلام دا أنا هربان من كوبانية النكد اللي في البيت عشان آجي تغموني هنا.. هو فين عطا ما جاش ليه؟

- النهاردا فرح أخوه وبيجوزه.

تحدث مدعي الفحولة

- لا حول ولا قوة إلا بالله حد يعمل في أخوه كدا الدنيا اتقل بركتها الاخوات بقوا ياكلوا في بعض.. ادعوا لأخيكم فإنه الآن يسأل.

ضجت القهوة بالضحكات بينما التفت هو لإحدى السيدات المارة بجانب القهوة ملقيًا جملته الشهيرة

- حاسبي أحسن الأرض عليها اقساط.. حجر تاني يا زفت.

* * *

نظر إلى السماء أحرقت الشمس عينيه فأخفضهما مرة أخرى ظل ساعة ينتظرها وهو على هذا الحال حتى ظهرت بوجهها الطاهر وعينيها البريئتين وصليبها الذي يزين صدرها ألقى السيجارة التي كانت بيده واقترب منها مبتسمًا رفعت عينها إليه بنظرة فزعة ثم أشارت له بخوف أن يبتعد عنها، توقف فجأة وهو يلتفت حوله وجد ابن عمها مختبئًا خلف أحد الأشجار يراقبها بناءً على تعليمات عمه بأن لا تغيب عن عينه لحظة واحدة دخلت المدرسة وهي تنظر خلفها بخوف بينما عاد هو أدراجه.

* * *

سحب من السيجارة نفسًا عميقًا ثم أطلق بعدها سحابة غلفت المكان نظر حوله بشيء من الرهبة تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها قسمًا من أقسام الشرطة بعد إصداره البطاقة الشخصية لم يكن يعلم سبب وجوده سوى أن هناك استدعاء استلمته زوجته جاءه على يد محضر يطالبه بسرعة الحضور انتشله ضابط القسم من ضياعه مستفهمًا

- انت محمود عواد؟

- ابتلع ريقه بخوف: أيوة يا افندم

- ليك بنت اسمها نادية

غاص قلبه أسفل قدميه وجاءه مائة خاطر بأن يكون أصابها مكروه قبل أن يجيب بفزع

- أيوة ليا، جرالها حاجة؟ خبطتها عربية؟ حصل لها إيه؟

- باقتضاب: إحنا استدعيناك عشان تستلم بنتك، أثناء حملة تفتيش على منطقة شبه مهجورة في ضواحي الهرم لقيناها في مخزن قديم مع مجموعة بنات متسولين وفيه واحدة منهم مسجلة آداب.

نظر له بعدم تصديق جلس على أقرب مقعد متواجد كي لا ينهار على الأرض مغشيًّا عليه من الصدمة، ابنته مع فتيات ليل، فيما أكمل الضابط بلا مبالاة وكأنه تعود على مثل تلك المشاهد التي يراها يوميًّا.

- وأحب اطمنك إن جسمها خالي من أي مخدر أو أي آثار لحقن المروفين اللي تم العثور عليها في المخزن

- بانكسار وعدم تصديق: إزاي.. نادية بنتي أنا مع بنات ليل ومدمنين كمان دي كانت المفروض تبقى قاعدة مع عمها في بيته.. طيب ممكن أشوفها لو سمحت؟

- آه طبعًا وتقدر تستلمها كمان إحنا مافيش حاجة ماسكينها ضدها بقية البنات اتقبض عليهم بتهمة حيازة وتعاطي مخدرات دا غير إن هما نفسهم اعترفوا إنها مش شريكتهم وانهم لاقوها في الشارع في نفس الليلة اللي هجمنا فيها على المخزن وكل دا طبعًا في صالحها دا غير إن جسمها نضيف من أي مواد مخدرة، ضغط على زر الاستدعاء لم تمر ثواني حتى دخل أحد العساكر

- هات لي نادية محمود عواد من الحجز.

ألقى التحية العسكرية ثم خرج ولم يغب كثيرًا حتى طرق الباب مرة أخرى دخلت نادية وهي لم ترفع عينها من على الأرض فيما نظر هو لها بمزيج من الاتهام والقرف منها ومن همومها ومصائبها التي تتزايد.

* * *

راح قلبه يدق بعنف أثناء صعوده على عمود أحد جدران منزلها كاد أن يسقط عدة مرات لولا العناية الإلاهية له، لم يعرف كم مضى عليه من الزمن بدون أن يراها إنه على يقين تام بأن حياته لا قيمة لها بدون وجودها وإن استطاع أن يحرق الأرض بمن عليها من أجلها سيفعل عن طيب خاطر هي ليست حبيبته فقط ولكنها كهفه الذي يختبئ من العالم بداخله ليداوي به آلامه ومعاناته، وصل إلى حجرتها وبدأ يدق برفق على الشباك توقف قلبها عن النبض لثوانٍ حين رأته فيما تسمرت قدماها تأبى التحرك نظرت له بعدم تصديق من خلال الزجاج ظلت على هذا الحال من الذهول حتى أشار لها بأن تفتح له.

ساعدته على الدخول برأسه أولًا ثم جسده حتى اختل توازنهما وسقطا معًا على أرضية الغرفة نظرا لبعضهما ثم انفجرا ضاحكين مما حدث، أشارت له بالسكوت وهي تنظر تجاه باب الغرفة خوفًا من أن يكون قد سمع صوتهما أحد اقترب منها وقبلها بعد وقت، أبعد وجهه عنها بادرته هامسة.

- رفضوا وبيراقبوني عايزين يعرفوا انت مين عشان كدا بعدت ولازم أبعد أنا مش هاقدر أعيش وأكمل لو حد سبب لك أي أذى أو لمسك.

أحتضن وجهها بين يديه ونظر إلى عينها حاولت الهروب من عينيه ونظرت حولها ولكنه أعادها إليه مرة أخرى

- لسانك بيقول حاجة وعنيكِ بتقول حاجة تانية وأنا ضايع وعاجز بين الاتنين.

أخرج من جيبه سلسلة ذهبية معلق بها صورة للعذراء مريم ومعها أول حرف من اسمها M

نظرت لها بفرح بينما ابتسم هو لأنه استطاع أن يجعلها سعيدة وإن كان للحب صليب كالمسيحية التي تعتنقها فها هو مصلوب أمامها الآن ساعدها في ارتداء السلسلة قائلًا بخوف:

- عشان تبقى ذكرى حلوة ليكِ، عارفة إيه اللي يفصل بينك وبين أي ذكرى حلوة بتمر في حياتك؟

لم تجِبه واكتفت بالنظر له فيما أجابها مبتسمًا

- التوقيت... ساعات بييجي علينا وقت نفتكر الحاجات الحلوة اللي بنعيشها في حياتنا ونتمني لو نرجع تاني بآلة زمن عشان نعيشها تاني وتالت ونمسك فيها وما نخيلهاش تعدي بالسهولة اللي كانت بتعدي بيها وعشان انتِ حبيبتي وأي حاجة حلوة في حياتي باشوفها فيكِ باقول لك افرحي على قد ما تقدري لأنك ما تعرفيش إيه الوقت اللي هيعدي عليكِ بعد كدا عشان تيجي لحظة ذكرى حلوة تانية ممكن يكون الوقت دا ساعات وممكن شهور وسنين.. فاهماني؟

نظرت له شبه باكية كانت تشعر أنه يودعها وأنها لن تراه مرة أخرى اقتربت منه واضعة نفسها داخل أحضانه، إنه المكان الوحيد الذي تنتمي إليه.

ابتسم لنفسه بشيء من الرضا وهو يجلس مع ثلاثة من أصدقائه يشرح لهم ما سيفعلونه، لم يكن يعلم أن عقله يستطيع أن يساعده في الوصول لتلك الفكرة الجهنمية التي ستخلصه من تلك المرأة وما تحمله بداخلها لم يختلفوا كثيرًا عنه من حيث السفالة وموت الضمير والرغبة في الأذى، بادرهم قائلًا:

- هي هتيجي النهاردا بالليل عندي في الشقة القديمة عارفينها طبعًا

ضحك أحد أصدقائه

- حد ينسى وكر الملذات دا الواحد صحته تعبت من ساعة ما قفلتها

- أهي صحتك هتنتعش النهاردا لما أسلمها لكم تسليم أهالي عايزكم تعملوا فيها اللي ما اتعملش دي واحدة سايبة من ساعة ما اتطلقت وهي مقضياها قال إيه نمت معاها مرة وفجأة بقت حامل يرضيكم أخوكم يلبس في زرعة مش زرعته وأتجوز واحدة زي دي، دا أنا مش بس ما آمنهاش على اسمي دا أنا ما آمنهاش على شراباتي.

تدخل أحد أصدقائه متسائلًا فاغرًا ثغره عن ضحكة صفراء لأسنان فعلت السجائر والقهوة مفعولها بهما:

-المهم حلوة؟ هننبسط ولا جايبنا تأدية واجب؟

- هتتنيلوا..المهم إني أدخل عليكم ألاقيها في الوضع دا ويا سلام بقى لو تصوروها كام صورة وكل واحد بياخد دوره معاها ساعتها أخيرها يا تبعد عني يا تشهدوا معايا في أقرب قسم إن دي واحدة ملك الشعب.

انفجروا ضاحكين ثم تركهم مغادرًا وأثناء عودته منزله لم يترك صدر أو مؤخرة تفلت منه دون أن يمرر عينه عليهم كنوع من البحث والتنقيب عن مجهول تم اكتشافه مسبقًا!

دخل شقته مدندنًا بصوت تغلب على نهيق حمار لم يلق سلامًا على زوجته الواقفة بالمطبخ اتقاء رائحتها ورائحة ما تعده قبل أن يدلف إلى غرفته ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية، اتجه إلى حجرة ابنته الكبرى وكما توقع وجد نادية جالسة يحمل وجهها هموم العالم بأكمله خائرة القوى لم تحدث أحدًا منذ أن جاء بها والدها من قسم الشرطة زحف إليها كالأفعى.

- حبستك لنفسك دي ما لهاش لازمة صدقيني هو دا البيت الوحيد اللي هتستريحي فيه.

رفعت عينها التي لم تعد تحمل سوى الحقد والكراهية له ولجميع من حولها

- انت إيه يا أخي شيطان عندك بنتين ربنا يحرق قلبك عليهم سامعني ربنا هيحرق قلبك عليهم.

اقترب منها واضعًا أصابع يده على فمها نفضتهما سريعًا بعيدًا عنها تجاهل ما فعلته واكتفى بأن غمز لها.

- هاشوفك بالليل

تركها وخرج من الغرفة بعدما أرسل لها قبلة في الهواء بصقت عليه أو على ما تبقي من أنفاسه الكريهة داخل الغرفة

- في ستين داهية

جلست تبكي بحرقة عندما تذكرت ما ينتظرها الليلة تداعت لها بعض الأحداث التي حدثت لها وتردد صداها في أذنها

- أمها دايرة تنبسط مع الرجالة واحنا اللي نشيل همها

- لمي هدومك

- بابا أنا ما سرقتش حاجة

- هاشوفك بالليل

- أمها سارحة مع الرجالة وهي زي الرمة

- بابا أنا ما سرقتش حاجة.. صدقني

لم تستطع إيقاف ذلك النزيف من الكلمات التي ظلت تتردد داخلها ضربت أذنها بشكل هستيري بكلتا يديها محاولة منها في إسكات تلك الأصوات تناهي إلى سمعها صوت الأذان يخرج من مسجد ليس ببعيد عنها سقطت يدها من على أذنها لتستقر بجانبها هدأت نفسها وتوقفت دموعها ونظرت تجاه الصوت باستغاثة

لم تشعر في اللحظات التي تليها سوى بأقدامها وهي تتسلل راكضة خارج المنزل تعثرت عدة مرات ولكنها لم تسقط سمعت صوتًا ينطق باسمها لم تلتفت له شعرت بالعالم كله يخنق ضلوعها ويجثم على روحها في اضطهاد واضح تنفست بصعوبة بينما لم يكف جسدها عن الارتجاف، انهارت على أعتاب المسجد تمسكت بصعوبة بالجدران كي لا تسقط خلعت حذائها ودخلت في خطوات مترددة شعرت برهبة لم تستطع إخفاءها فتلك هي المرة الأولى تقريبًا التي تدخل فيها مسجد توضأت وانضمت للمصلين لم تكن تصلي ولكنها كانت تعلم كيفية الصلاة لم تقم بحركات جسدية بأن تركع مع الراكعين وتسجد مع الساجدين حتى أنها تعجبت من خشوعها في الصلاة وإحساسها بكل آية يتلوها الإمام كانت تلك هي المرة الأولى التي تقف فيها بين يد الله وفي بيته

- تقبل الله

كانت تلك سيدة عجوز تصلي بجانبها ربما تجاوزت السبعين ابتسمت لها بسماحة

- منا ومنكم

- بادرتها السيدة: أول مرة أشوفك في الجامع

- بتردد: أصلي كنت.. مسافرة

- طيب يا بنتي حمد الله على السلامة

ثم تركتها وانصرفت لتكمل صلاتها لفت نظرها آية قرآنية معلقة على الحائط

" يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ "

من خلال الحاجز الذي يفصلها عن مصلى الرجال لمحت أمام المسجد ميزته من خلال تلك الهالة البيضاء التي تحيط بوجهه، انتظرت حتى انتهى المصلين وخرجوا من المسجد واقتربت منه في خطًى ثابتة ثم جلست أمامه

- أنا مخنوقة يا عم الشيخ

نوع آخر من الانجراف لم تعلم مصدره خرجت الكلمات من فمها كمسجون أنعم عليه بالحرية كانت تريد من يرشدها إلى ما يجب أن تفعله ويكون عونًا لها ومن سيكون أفضل من رجل يحمل في قلبه كلام الله.

لم يستوقفها سوى نظرات الذهول وعدم التصديق التي صدرت من أمام المسجد وهو يصيح:

- مش معقول مش معقول اللهم أجرنا في مصيبتنا وأخلف علينا خيرًا منها اللهم انتقم منه اللهم أرنا فيه عجائب قدرتك.. طيب يا بنتي انتِ ساكتة ليه قولي لأبوكِ عشان يساعدك

بابتسامة مريرة

- مش هيصدقني..أنا هددته إني أقول له بس رد عليَّ ساعتها إنه هيقول إني كنت ماشية مع واحد وضحك عليَّ وإنه سترني وما رضيش يقول لحد عشان بابا ما يعرفش ويقتلني

- أعوذ بالله.. إيه دا شيطان؟ دا مستحيل يكون بني آدم.

أحني رأسه مفكرًا شاب شعره من هول ما سمع كان يريد مساعدتها ولكن كيف؟.. وبعد فترة قال لها

- بصي يا بنتي اللي حصل لك في الأول دا اغتصاب لأنه كان غصب عنك بس لو سكتِ واستمريتِ يبقى زنا، دافعي عن نفسك بلغي الشرطة هناك هيعرضوكِ على الطب الشرعي وهيثبتوا صحة كلامك اعملي حاجة أي حاجة إلا السكوت وربنا معاكِ وهينصرك على الحيوان دا

في لحظة يأس

- ربنا!! وكان فين ربنا من الأول.. كان فين

وانفجرت باكية

- استغفر الله العظيم هو دا اللي الشيطان عايزه، إنك تخسري إيمانك.. إن شاء الله المجرم دا هياخد جزاؤه وما ربك بظلام للعبيد.

- ممكن طلب

- طبعًا يا بنتي.. اتفضلي

- ممكن أنام هنا

- بيوت الله مفتوحة لعباد الله تقدري تنامي في مصلى السيدات بس مش هتخافي وانتِ لوحدك.

- بالعكس دي يمكن تكون أول ليلة تعدي عليَّ في حياتي أنام فيها وأنا مطمنة

تركها الشيخ وانصرف للتحضير لصلاة جنازة ستأتي مع دعوات لها بصلاح الحال وحسن السداد

داخل مصلي السيدات نظرت حولها في ارتياح وجدت آية أخرى معلقة على الحائط " أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " نظرت لها مبتسمة نصف ابتسامة ثم وجدت سجادة طبقتها ووضعتها كوسادة تحت رأسها ضمت قدميها بيدها في وضع جنين ونامت على هذا الوضع.

في تلك المنطقة التي تفصل اليقظة عن المنام وجدت هي كانت في حالة من اللاوعي عندما جاءها عمر بن الخطاب مادًّا يده إليها مبتسمًا لها هي وحدها كانت تعلم أنها تحلم فمن تكون حتى يأتيها عمر مصافحًا ابتسامته المشجعة جعلتها تقترب منه ولكنها لم تكد تخطو خطوتها الأولى حتى شعرت بألم شديد في كتفها، ابتعدت يده عنها والألم يزداد فتحت عينها لتجد القدم التي تلكزها في كتفها وعينان تنظران لها بتحفز وتهديد.

- بفزع: بابا.

- ولا كلمة يلا بينا مش وقت ولا مكان للحساب

نظرت حولها وجدت أنها ما زالت بالمسجد بحثت عن عمر لم تجده!

أشار لها والدها أن تتقدمه وخرجا من المسجد كان عمها ينتظرها بالخارج بمجرد أن وطأت قدمها خارج المسجد حتى تلقت من والدها صفعة ألقت بها على الأرض من شدتها انهال عليها ضربًا بقدمه صارخًا

- هو أنا ناقصك مرة قسم ومرة جامع ومرة سرقة ومرة مخدرات وبنات ليل بهدلتيني وعريتيني زي أمك.

بهدوء ودون أن يحاول التدخل

- بالراحة عليها يا محمود مش كدا طول بالك شوية انت عارف أفلام اليومين دول مبوظة عقول العيال مع إن معاملتي ليها زي ما انت شايف وعلى إيدك مش حارمها من حاجة واهو كله من خيرك يا أخويا.

- بانفعال: خدها من وشي بدل ما أقتلها ولو حصل حاجة تانية كلمني

ثم رماها بنظرة احتقار قبل أن يتركها بين يدي الشيطان وينجو بنفسه!

* * *

وقف على بعد مجموعة من الأطفال يلعبون في الشارع توقف بنظره عند طفلة معينة نظر لها باشتهاء طفلة حافية في الخامسة من عمرها ترتدي فستانًا خفيفًا لم يصل إلى ركبتها لم تكن ترتدي شيئًا تحته تأكل قطعة بطاطا لوثت بها فمها كان يبحث عن تفريغ ما بداخله الناتج عن تراكمات بقايا مشاهد صدور ومؤخرات عارية في مجلات PLAY BOY وأفلام البورنو التي يراها مع أصدقائه تلك فترة، عنفوان الشباب.

ولا بد أن هرمونات الذكورة عالية جدًّا في مثل هذا السن ولو مر من أمامه كلبة بلدي لشعر بنفس الهياج أيضًا ظل على هذا الحال حتى جاءته الفكرة ذهب ليشتري إحدى البالونات من بائع غزل البنات ثم اقترب منها ببطء وهو ينظر حوله خشية أن يلاحظه أحد ونجح في أن يسحبها من بينهم.

كان المنزل مظلمًا قذرًا وثمة كلب يتخذ وضع الهجوم ينظر لها في شك كانت مذعورة كفأر تم إحكام صيده أرادت أن تخرج ولكنه سد الباب عليها بجسده لم تعِ شيئًا سوى أنها شمت رائحة أنفاسه الكريهة وهو يقبلها شعرت بعدها برغبة في القيء، امتدت يده تعبث بجسدها ثم امتدت بعدها نفس اليد لتفتح سحاب سرواله فتحت فمها لتصرخ ولكنه سارع بوضع يده ليكتم أنفاسها، استغرق هذا العذاب نصف ساعة كاملة أغلق بعدها زمام بنطاله راح قلبه يدق بعنف وهلع، غادر المكان مسرعًا وهو يتعثر ليتركها في إعياء شديد وفستانها الغارق في الدماء يصرخ بما حدث خرجت خلفه

مترنحة كان هناك دم أحمر يسيل منها ملتفًا حول فخذها نظرت لأسفل وشعرت برعب مما تراه، ضمت ساقيها ولفت الثوب عليها في حركة لا إرادية منها لم تدرِ أي اتجاه تذهب ولكنها قررت أن تنتقم منه فبرغم صغر سنها وبراءة عقلها قررت أن تذهب إلى منزله وتشتكي لوالده لكي يضربه على ما فعله بها لم تكن تترك الشارع أبدًا لذلك كانت تعلم البيوت جيدًا وتحفظ سكانها وتميز الأشخاص من وجوههم وليس من أسمائهم طرقت الباب في ضعف لتفتح لها امرأة لا تختلف كثيرًا عن ابنها فالشياطين لا تأتي بملائكة.

- بتعنيف: نعم يا أختي عايزة حاجة؟ ما فيش أكل هنا روحي شوفي أمك فين

أشارت لها ببراءة تجاه الفستان الملطخ بالدماء.

- شُفتِ يا طنط ابنك عمل إيه قلعني الفستان و.....

بترت جملتها عندما وضعت يدها على فم الطفلة وسحبتها داخل الشقة تلفتت بالخارج حتى تتأكد من أن أحدًا لم يرها وهي تدخل، أغلقت الباب وحملت الطفلة المغطاة بالدم ودخلت بها الحمام وهي تصرخ

- يا ابن الكلب يا جمال هتودينا في داهية

خلعت فستانها الغارق بالدم وألبستها أحد الفساتين الخاصة بحفيدتها وبدأت بتهديدها

- عارفة لو أمك عرفت هتضربك وتحرقك بالنار تخرجي من هنا جري على البيت واوعي تقولي لحد على اللي حصل.. فاهمة يا بت

نظرت لها الطفلة بخوف وخرجت من المنزل حزينة لضياع حقها فلماذا لم تضرب ابنها؟...إنه هو المخطئ وليست هي، عندما عادت لمنزلها تفاجأت بوجود أمها تضع الجبن وبعض العيش على الأرض لكي يأكلوا اقتربت منهم وهي ترتجف عندما لاحظت أمها ذلك الخيط الرفيع من الدم على قدميها ثم اقتربت منها متسائلة

- إيه الدم دا يا ندى انتِ وقعتِ في الشارع؟!

بخوف واضح وحركة لا إرادية ضمت يدها أمام وجهها كنوع من الحماية

- مش هاقول لك لو عرفتِ هتضربيني وتحرقيني بالنار

اقتربت منها بهدوء وربتت على كتفها مطمئنة

- أعرف إيه؟ قولي اللي حصل ومش هاضربك ولو كدبتِ هاعرف من برَّا

- ببراءة: عمو جمال حط مكان ما بيعمل حمام هنا.

وأشارت للجزء الأسفل من جسدها لو أن أحدًا قام بغرس سكينة في صدرها فلن تأتي بألم مثل الذي سببه تلك الكلمات، لطمت صدرها وهي تصرخ

- يا لهووي.. يا لهوووي

لم تشعر بنفسها وهي تجري حافية في الشارع كالذي أصابه مس ارتطمت بكل شخص قابلته حتى وصلت إلى باب المنزل ضربت الباب بكل ما بها من قوة حتى فتحت لها أمه، ارتبكت عندما رأتها أمامها بينما صرخت الأخرى فيها وهي تبحث بعينيها عنه داخل الشقة.

- جمال ابنك فين.. فين جمال دا أنا هاقطع من لحمه واكل بسناني انتِ عارفة ابنك عمل إيه

- بتجاهل: هيكون عمل إيه يا اختي إيه البلاوي اللي بتتلقح علينا دي؟

صرخت بحرقة وهي تحاول الدخول

- والختمة الشريفة لاقتله.. عملتوا إيه في بنتي يا ولاد الكلب.

لطمتها على وجهها ثم وقفت بجسدها تسد الباب لتمنعها من الدخول

- باقول لك إيه يا مرة.. بقى انتِ تتلطعي في كل بيت شوية وترمي عيالك في الشارع قارفيننا طول النهار عايزين ناكل عايزين ناكل واحنا من رحمتنا بنرمي لهم لقمة يسدوا بيها جوفهم وفي الآخر تيجي تتبلي علينا وعايزة تودينا في داهية روحي يا اختي شوفي مين لعب في بنتك.

ثم دفعتها بعيدًا عن الباب وأغلقته في وجهها بينما انهارت الأخرى على السلم تحدث نفسها في بكاء وحرقة

- عملتوا إيه في بنتي يا ولاد الكلب.. عملتوا إيه في بنتي؟

سكتت لحظة ثم لطمت على وجهها

- أنا اللي عملت.. أنا اللي عملت

* * *

شعرت بمرارة في حلقها وانقباض في صدرها لم تعلم مصدرهما أثناء استعدادها للذهاب إلى مجهول لا تعرفه ولا تريد أن تعرفه لماذا أصر على مقابلتها في شقته القديمة غباء منها أن لا تطلب منه أن تكون المقابلة في مكان عام شعرت أنه يريد أن يؤذيها وخصوصًا بعد تهديدها له بضرورة زواجه منها، أين كان عقلها عندما استسلمت لهذا الحيوان ومن الطبيعي أن يكذبها عندما أخبرته بحملها ومن أول مرة على حسب قوله لقد وعدته أن تساعده ماديًا ولكن مثله لن يعطيها اسمه ولا ليلة أو ساعة واحدة إذا فلماذا يريد مقابلتها؟ ربما يريد قتلها أو التخلص منها.

أرعبتها الفكرة فهو قادر على فعل أي شيء ولن يشك به أحد، لن تذهب وإن كانت نيته سليمة فليأتي هو.. رفعت سماعة الهاتف وأدارت القرص، جاءها صوت سارة ابنته

- ألو

- بتردد: أيوة يا سارة أنا أبلة أمل.

- بفرح: أبلة أمل.. حضرتك عاملة إيه؟ واحشاني، أنا استنيت حضرتك في المدرسة عشان أراجع معاكِ الامتحان بس...

- قاطعتها بتململ: بعدين يا سارة اسمعيني يا حبيبتي عارفة شقتكم القديمة في الشارع اللي وراكم

- أيوة عارفاها

- بابا مستنيني هناك دلوقتي عشان.. عشان يدفع لي فلوس آخر حصة من الدرس بتاعتك أنا حصل عندي ظرف كدا ومش هاقدر أروح، حاولت أكلمه في التليفون اللي هناك بس ما حدش بيرد ممكن تروحي تبلغيه إني مش هاجي وانه لو عايز يتكلم أنا مستنياه في بيتنا ومش هاتصرف أي تصرف غير لما ييجي ونتفق، سارة ما تنسيش تأكدي عليه إن انا مستنياه النهاردا في بيتي، سامعة؟ في بيتي.. ماشي يا حبيبتي؟

- حاضر يا أبلة هاروح له دلوقتي

- مع السلامة

- سلام.. وضعت سارة السماعة وارتدت ملابسها سريعًا ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها

- عسل وعليه طحينة.. كان هذا أحد الشباب المارين بجانبها ألقت له نظرة أحتقار وأكملت سيرها صعدت سلم منزلهم القديم وجدت الباب مفتوحًا دخلت تبحث عن والدها

- با...

بترت كلمتها عندما تفاجأت بثلاثة رجال أحدهم أغلق الباب والآخر وضع يده على فمها ليكتم صرختها وحملوها وهي تتلوى بين أيديهم في محاولة استنجاد منها دون جدوي

* * *

كانت على أعتاب كنيسة مارجرجس أحد كنائس مصر القديمة، ترددت في الدخول لقد رفض مقابلتها آخر مرة تواجدت فيها هنا.. تقدمت منه بخطوات وهي تنظر لتمثال العذراء بندم واضح بينما كان الأب يختتم عظته الأسبوعية.

- إن الكنيسة هي سفينة النجاة للمسيحيين من بحر هذا العالم المتلاطم الأمواج لتصل بهم إلى ميناء الخلاص وهي رمز أيضًا إلى فلك نوح الذي أنقذ أولاد الله من الطوفان.

لمحها تجلس من بعيد فعقب كلامه وهو ينظر لها كأنه يختصها هي وحدها بهذا الكلام

- فمن أراد أن يترك السفينة فليتركها وليغرق من يغرق وينجو من ينجو.

غادر الجميع واحدًا تلو الآخر.. اقتربت منه في خوف ظاهر حاولت أن تتكلم ولكن الكلمات حشرت في فمها وأبت الخروج، بادرها ساخرًا

- غريبة إني أشوفك هنا، انتِ مش أعلنتي إسلامك؟ صلاة العشاء وجبت.

- هامسة: انت مش عارف كان بيعاملني ازاي كل حتة في جسمي عليها ضربة من إيده.

- مؤكدًا: برضه ما رديتيش عليَّ انتِ مش أعلنتي إسلامك؟ إيه اللي جايبك؟!

حديثه مع شيخ الأزهر الذي قام بتوصيله من أسبوع ترك أثره بداخله لم يكن يريد أن يكون كاذبًا بينه وبين نفسه أن يقول شيئًا وهو يفعل شيئًا آخر وأن يكون دفاعه مجرد كلمات خرجت لتبرئة الكنيسة فقط.

تركها مبتعدًا عنها.. في قرارة نفسه كان يعلم أن تصرفه هذا غير مقبول وأنه ليس من حقه أن يرفض مقابلة أحد حتى لو كان مسلمًا ظاهريًّا ولكنه كان يكره أن تظهر الكنيسة على أنها تبارك تلك الأفعال المسببة للفتن والتي أريقت بسببها كثير من الدماء وقد كان يخشى عليها أيضًا هي وغيرها فهناك خيط رفيع يفصل الكفر عن الإيمان وهو اليقين.. بينما اكتفت هي بالنظر له باكية وخرجت في صمت، أما هو فقد حملت عيناه نظرة غامضة وهو يضيء أحد الشموع هل كان عليه أن يتحدث معها ويعطيها فرصة أخرى لكي تعلم خطأها فمن هو حتى يغلق بابًا مفتوحًا في وجه أحد.

ولكن ما فعلته.. كسر تفكيره صوت أبواق سيارات ثم صوت ارتطام يصحبه صرخة استدار لينظر عبر النافذة الزجاجية وجد مجموعة من الناس ملتفة حول شخص ملقًى على الأرض ظهر جزء من ملابسها عرفها على الفور قطع المسافة جريًا خارج الكنيسة.. وقعت منه الشمعة على الأرض وانطفأت!

اخترق أكتاف المارين والمتجمعين حول الجسد الراقد على الأرض والغارق في دمائه اقترب منها وركع بجانبها متلهفًا قلقًا وعيناه جاحظتان دامعتان نظر لوجهها بذهول وشيء من اللوم لنفسه، ظلت تنازع حتى جاءتها شهقة الموت

وصعدت روحها إلى السماء، أغمض لها عينيها الشخص الجالس بجانبها وسط تصاعد همهمات الملتفين حولها

- دي ماتت

- لا حول ولا قوة إلا بالله

- حد يفتح شنطتها ويعرف دي مين ويبلغ أهلها

- شيلوا معايا يا جماعة ندخلها الجامع ولا هنسيبها في الشارع كدا

- جامع إيه أنا لسَّا شايفها خارجة من الكنيسة

اقترب منه أحد الموجودين مستفهمًا

- هي مش مسيحية برضه يا أبونا

نظر له القس باكيًا

- مش عارف.. مش عارف

تساقط المطر فوقه، أفزعه صوت الرعد نظر للسماء خائفًا هل كان الله غاضبًا عليه وعلى ما فعله في تلك اللحظة، أخفض بصره مرة أخرى وبقي على هذا الوضع بجانب الجثمان مستقرًا بين المسجد والكنيسة!

* * *

شعر بنشوة لا توصف عندما وجد الباب مفتوحًا ودخل ليجدها ملقاة على الأرض شبه عارية وشعرها يغطي وجهها والدماء تخرج من جسدها، اقترب منها تعلو وجهه ابتسامة انتصار لكزها بقدمه في كتفها ليعدل جسدها حتى يراها ذليلة في هذا الوضع، انحنى ليبعد شعرها عن وجهها توقف قلبه وغاب عقله وشل جسده عن الحركة صارخًا.

- لا مش دي.. مش دي يا ولاد الكلب

أصيب بجنون وخرج يجري بشكل هستيري في الشوارع ذهب إلى منزله في حالة من اللاوعي وهو لا ينقطع عن صراخه باحثًا عنها

- سارة.. هاتولي سارة... بنتي.

دخل جميع الغرف وهو ينادي على ابنته بجنون.. سمعت صراخه وهي داخل غرفتها وبمجرد أن فتح الباب سحبت سكينًا كانت وضعته تحت مخدتها هجمت عليه وغرسته في صدره مباشرة ونزعت السكين وغرستها مرة أخرى ظلت تفعل هذا حتى طعنته ثماني طعنات نافذة حتى سقط على الأرض جثة هامدة، دخلت زوجته الغرفة على صوت صراخه لتجد زوجها غارقًا في دمائه لطمت على وجهها وهي تصرخ:

- إلحقونا يا ناس.. إلحقونا جوزي اتقتل.. قتلته بنت الفاجرة

بينما ظلت نادية ممسكة بالسكين في يدها وهي تنظر لها مرة وتنظر للجثة الملقاة على الأرض مرة أخرى وهي تضحك ثم صمتت فجأة وأسقطت

السكينة من يدها وذهبت تجاه الشباك ثم نظرت خلفها نظرة أخيرة وهي تقول

- قولي لبابا إني مش مسامحاه.. وقولي لُه إن أخوك كان بينام مع بنتك من وهي عندها 6 سنين عشان كلت عليه ميراثه.. وقولي له يخلي باله من سلمى أختي عشان ما يحصلهاش زي ما حصل لي.. وقولي لُه إني ما سرقتش حاجة.. وقولي لُه إني.. إني كان نفسي أعيش.

ثم صعدت بهدوء وألقت نفسها من الشباك لتسقط بعدها جثة هامدة هي الأخرى.

في اليوم التالي

وأثناء خروجها من المدرسة تفاجأت مريم بحالة من الهرج تصيب جميع من في الشارع وهم يركضون في جميع الاتجاهات خمنت أن تكون هناك حادثة تصادم أو شيء من هذا القبيل تقدمت بضع خطوات.. على بعد منها وجدت تجمع من الناس استوقفت أحد المارين بجانبها وسألته عما يحدث

- لو سمحت.. هو فيه إيه؟

- بتأثر: لقوا واحد مضروب بالنار في الشارع شاب صغير ربنا يصبر أهله

اقتربت بثبات من مكان الحادث، اخترقت صفوف المتواجدين لتلقي نظرة على الجثة الملقاة على الأرض تطايرت الجريدة المغطى بها جسده لتظهر ملامحه التي تعرفها جيدًا وهي مغطاة بالدماء.. شعرت بقبضة في قلبها كأن

أحدًا أمسك به واعتصره بيده لم تصرخ لم تبكِ لم تلقِ بنفسها عليه لتأخذه في أحضانها للمرة الأخيرة فقط امتدت يدها لا إراديًّا إلى سلسلته المعلقة في رقبتها وضمتها إلى قلبها.

في نفس الوقت

الذي غادر فيه المعزين مقابر الأسرة ليتركوه وحيدًا وهو ينظر تجاه قبر أخيه صبري عواد والقبر الذي بجانبه حيث رفع عليه حجر التعريف نادية محمود عواد خرج من المدفن وهو يصرخ باكيًا بحرقة

- بنتي...أخويا.. ارحمني يا رب.

* * *

- بتعمل إيه يا نجس

بفزع وعدم تصديق

- حسين.. الله يخرب بيتك انت إيه اللي رجعك تاني؟

رائحة العرق والشهوة والغضب جميعها كانت تملأ المكان نظرت له زوجته في بلاهة واستغراب

- انت بتكلم مين؟

ساخطًا وهو يحاول أن يستر نفسه.

- ما لكيش دعوة... أستري نفسك يا ولية.

ثم وجه كلامه إلى شبحه

- تعالى نتكلم برَّا

أراد أن يسحب حسين من ذراعه كما كان يفعل قديمًا ولكنه فوجئ بسراب فأشار له أن يخرج وخرج من خلفه وصوت زوجته يلاحقه وهي تخبط كفًّا بكف.

- يعوض عليَّ عوض الصابرين انت اتجننت يا يحيى.

-بغضب: اتكتمي انتِ واستغطي باقول لك وإياكِ تقومي من مكانك لغاية أما آجي لك.

بمجرد خروجهما بادره يحيى متسائلًا

- انت هنا من إمتى؟

- ساخرًا: من أول ما قُلت لها راجع تعبان من الشغل لغاية ما عايرتك بضعف الأداء.

تجاهله يحيى بينما أكمل حسين باشمئزاز

- مش هتصدق اللي حصل لي دا انت دخلتني جوَّا واحد نجس دا أنا ما كنتش طايقني ما عرفتش أخرج منه إلا بموتة الراجل ابن الوسخة بيغتصب بنت أخوه.

- بقرف: يا ساتر وانت كنت واقف تتفرج عارفك تموت في الحاجات دي

- غصب عني الغريبة أن جسمه هو اللي كان بيتحكم في روحي مع أن المفروض العكس هو اللي يحصل.

- بسخرية: تبادل خبرات

- مدافعًا عن نفسه: لا يا عم كله إلا المحارم

- بلا مبالاة: أهو كله زنا

- على العموم أهو خد جزاؤه أكتر حاجة فعلًا حسيت بيها هي السكينة اللي دخلت جوَّا صدره حسيت كأني بنازع وباموت بداله.. المهم أنا جاي لك عشان تجيب لي واحدة تانية.

أطلق يحيى صوتًا من أنفه ساخطًا

- سادة ولا محشية؟!

- مؤنبًا: ضاقت بيك البلد ما لقيتش غير جثة النجس دا

- والله اللي لقيته مش هانقي

- ليه؟ أعمى؟ الشباب دلوقتي اللي مش لاقي شغل بيدور على موتة أرجوك يا يحيى أنا ماليش حد غيرك

بعد تفكير مستسلمًا

- حاضر... بس دي آخر مرة تجيلي فيها انصرف بقى أبو اللي جابتك ضيعت عليَّ الليلة دي الحباية لوحدها ببريزة خسارة في جتتها.. انصرف بقى خلع نعله وضربه به ولكنها محاولة فاشلة لم يصب بها سوى الهواء.

* * *

الصَّحْوَةُ الثَّانِيَةُ

4 يوليو -1187م

ليلًا

الهدوء يلف المكان، قرية تتشبث بجبل شامخ تتعلق بجسده الكبير بيوت قديمة تبدو للناظر ساكنة لا حراك بها وقد أخذ بعضها بنواصي بعض حتى يخيل للناظر إليها أنها قد ازدادت التصاقًا كأنها تأنس إلى بعضها هربًا من الوحشة، بعضها قائم على قدميه صامدًا وبعضها تقوست جدرانه كما يتقوس ظهر عجوز بلغ من الكبر عتيًا، أزقة القرية توحي للناظر إليها بسراديب تؤدي إلى الموت كأن لم يسكنها العمار أو كأنها...

قطع تفكيره صهيل جواد مقتربًا منه نظر حسين خلفه تدلى فمه وجحظت عيناه وهو ينظر مذهولًا تجاهه ليجد رجلًا بملابس عسكرية يمتطي حصانه استوقفه متسائلًا

- لو سمحت إحنا فين؟

- بتعجب: أورشليم.. يبدو أنك ضللت وجهتك

- بعدم تصديق: أورشليم! اللي هي في فلسطين؟!

- أجابه الفارس بتعجب: وهل يوجد أورشليم أخرى؟!

- كالغريق: طيب أنا مين بالظبط هه.. انت تعرفني؟

- تلك هي المرة الأولى التي أراك فيها يبدو أن الشمس قد أصابتك أثناء الظهيرة.. اتبعني سأوصلك إلى خيمة القائد صلاح الدين لينظر في شأنك

- بغباء: صلاح الدين مين؟

- متفاخرًا: الناصر صلاح الدين الأيوبي.

- عسل.. الله يخرب بيتك يا يحيى قُلت لك عايز جثة أعيش بيها مش أسافر بيها عبر الزمن.

سار خلفه كالمسحور غير مصدق ما يحدث له و بمجرد دخوله الخيمة تداعت له جميع الصور والكلمات التي صاحبت وصف صلاح الدين الأيوبي في الكتب والأفلام ولكن هؤلاء الذين تحدثوا عنه وقاموا بكتابة تاريخه بخسوه حقه فقد كان مظهره أكبر وأعظم من أي وصف ذكروه به.. الهيبة وفخر العرب وعزة الإسلام.. القوة والتواضع والشهامة والنخوة حتى الرجولة إن كان لها عنوان فعنوانها هذا الرجل الجالس أمامه الآن:

- اقترب يا بني

كان هذا صلاح الدين الذي أشار لحسين للجلوس بجانبه والذي اقترب منه في رهبة متسائلًا

- هو انت فعلًا صلاح الدين الأيوبي؟

- مبتسمًا: نعم.. أنا الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين.. تدعى حسين تيمنًا بالحسين رضي الله عنه كنت سأخرج لتفقد أحوال الجند فلتصحبني وفي الطريق حدثني عن نفسك وعن حاجتك وسأقضيها لك بإذن الله.

كان الظلام والسكون يحيطان بالمكان وهم يسيرون وسط الخيام تذكر حسين أحد الأقوال القديمة بأن الله يبعث للناس شعاعًا من نوره يجدد لهم ويبصرونه وسط الظلام الدامس والأيام الحالكة والليالي المفعمة بالسواد هنا فقط يرسل الله لهذه الأمة رجالًا يحملون هم هذا الدين يتركون الدنيا وزينتها وراء ظهورهم.. رجالًا لا يهابون الموت يريدون وجه الله والآخرة، هذا ما حدثته به نفسه عندما سقط ذلك الضوء الذي غلفت به إحدى النجوم وجه صلاح الدين كأنها أرادت أن تستأثر بضوئها لوجهه فقط.. انتشله صلاح الدين من تأملاته.

- حدثني يا بني من أين أتيت وما حاجتك؟

- بحيرة: أنا ماليش أي طلبات ولو حكيت لك أنا مين وإيه اللي جابني هنا هتقول عليَّ مجنون أو الشمس كلت دماغي زي ما قال الحاج اللي وصلني من شوية.

- مطمئنًا: تكلم واترك لي القرار

* * *

حكى له كل شيء بدءًا من حياته الخالية من أي انتصارات ومعارك عدا عبوره واقتحامه لحصن كل امرأة يراها حتى وإن كانت كلبة بلدية وصولًا لوفاته جسديًّا وروحه المبعثرة التي لا تجد جسد يلمها به وعن صديقه وإحضاره الجسد وصحوته الأولى التي مر بها حتى وقوفه أمامه.

- طبعًا أنت مش مصدقني وبتقول عليَّ مجنون ومش بعيد تقول إن دا الجزء الخامس من final destination

- بنصف ابتسامة: ما كان لصلاح الدين أن يصف شيئًا بالمستحيل ولي رب يقول كن فيكون.. إذن فأنت من المستقبل؟

بارتياح لتصديقه

- حاجة زي كدا

-مستفهمًا: إذن صف لي حال الأمة بعد تحرير بيت المقدس ورجوع فلسطين عربية مرة أخرى للمسلمين؟

- مهمهمًا: يا نهار اسود ودا أقوله إيه.. دا ممكن يتشل فيها.

- أجبني فقد سألتك عن حال الأمة بعدي.

- معترفًا: بص أنا مش هاقدر أكدب عليك هما خدوها تاني

- بفزع: من هم وماذا أخذوا؟

- غير مصدقٍ: أتقصد أنهم احتلوا فلسطين مرة أخرى.. كيف وأين كان العرب عندما وطأت قدم يهودي أرض عربية مقدسة؟

السؤال الذي حير الملايين من العلماء أمثال أديسون وأينشتين ومارك "مخترع الفيس بوك" وأم خميس بتاعة العيش

سأله مرة أخرى بإصرار وعدم تصديق

- أين كان العرب.. وأين حكامكم؟

ساخرًا

-العرب كانوا..invisable والحكام زي خيبتها، كبيرهم يعملوا قمة عربية ينزلوا فيها شجب واعتراض وشوية دموع لغاية ما يغرقونا، الواحد من دول على ما يقف بس بيبقى فيه عزومة بينه وبين كرشه مين فيهم اللي يقوم الأول.

- بحسرة: إني أتذكر إحدى الليالي جاءني فيها أحد الجنود يدعوني للنوم وقد كان مر عليَّ ثلاث ليالٍ لم أنم فيها فأجبته كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس في يد الصليبيين والله إني لأستحي أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنجة.. انظر يا بني من هنا يأتي النصر.

أشار له صلاح الدين على إحدى الخيام كان يوجد بها عدد من الجند يقرؤون القرآن ويقومون بالصلاة ثم عقب قائلًا

- خيمة تقوم الليل ترجو خالقها تأخذ من الزاد الإيماني ما تستطيع به أن تقاوم جند الباطل وأعداء الحق جند يعلمون أنهم إذا تساووا مع أعدائهم في المعاصي فاقهم عدوهم بالعدة والعتاد فكان ذلك سبب هزيمتهم جند يتمثلون قول أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - حينما أرسل تعليماته إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في جبهة فارس فقال له: إني آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم.

حسين مهمهمًا:

- سبحان الله زي عندنا بالظبط ما بنصليش غير يوم الجمعة.

حدثته نفسه بأن على مدى سنوات اختصر أغلب المسلمون إسلامهم في الجلباب الأبيض القصير والسواك ورائحة المسك والسبحة، مثل هذا الإسلام لن يعيد الأقصى.. وربما إن تحرك أحدهم سيقوم بعمل غبي كتفجير نفسه وسط عاصمة تضم الآلاف ليضمن قصرًا في الجنة!

ثم وجه حديثه إلى صلاح الدين

- أنا تعبان.. هو انت متعود كل يوم تلف اللفة دي؟!

- بفخر: وكل ساعة.. لابد من رفع معنويات الجند، إن الرجال هم أعظم صنعة وبناء الإنسان أشد من بناء القصور وهناك رجال صنع الواحد منهم بألف كما أن هناك ألوفًا لا يساوون رجلًا واحدًا.

استوقفه صلاح الدين ناظرًا له مستفهمًا غير مصدق

- أحقًّا احتل اليهود فلسطين؟

- يا ريت على كدا.. وشردوا الشعب الفلسطيني وهدموا البيوت وقتلوا الشباب والشيوخ والأطفال وعملوا تصفية للدعاة وعلماء المسلمين وحرقوا المساجد ودبحوا الأئمة وقطعوا ألسن المؤذنين وعملوا معسكرات اغتصاب لبنات المسلمين و...

قاطعه صارخًا

-كفى كفى.. الحمد لله أنني لن أحيا لأرى هذا اليوم وهل تطلقون على أنفسكم رجالًا في زمنكم هذا؟!

- بلا مبالاة: إحنا مش بايعين روحنا زيكم.. العمر مش بعزقة.

نظر له صلاح الدين بأسف قائلًا

- أتعلم يا بني إنك لن تمنع موتًا يأتي إليك ركضًا

قاطعه أحد الجنود

- مولاي هناك رسول يريد مقابلتك

- ايتني به

اقترب منه أحد الجنود الصليبيين في خوف واضح، كان أشبه بالجندي الذي يقف في الصف الأخير في المعركة محاولًا النجاة من موت محقق أو على أقل تقدير تأجيله قليلًا، أعطاه الرسالة وتراجع مبتعدًا فضها صلاح الدين ليقرأ ما بها

(من ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنجليز)

إلى صلاح الدين الأيوبي ملك العرب.

أيها المولى

حامل خطابي هذا بطل صنديد، لاق أبطالكم في ميادين الوغى وأبلى في القتال بلاءً حسنًا وقد وقعت أخته أسيرة فساقها رجالكم إلى قصركم وغيروا اسمها فقد كان اسمها ماري فأطلق عليها اسم ثريا وإن لملك الإنجليز

رجاء وهو إما أن تعيدوا إلى الأخ أخته وإما أن تحتفظوا به أسيرًا معها، لا تفرقوا بينهما، ولا تحكموا على عصفور ان يعيش بعيدًا عن أليفه أذكركم بقول الخليفة عمر بن الخطاب وقد سمعته من صديقي الأمير حارث اللبناني هو (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) وإني بانتظار قراركم بهذا الشأن.

أغلق الرسالة ونظر طويلًا للرسول ثم صافحه ووجه كلامه إلى الحارس

- أكتب ما سأمليه عليك

من سلطان المسلمين صلاح الدين إلى ريكاردوس ملك الإنجليز

أيها المولى صافحت البطل الباسل الذي أوفدتموه رسولًا إليَّ، فليحمل إليكم المصافحة ممن عرف قدركم في ميادين القتال وإني لأحب أن تعلموا بأنني لن أحتفظ بالأخ أسيرًا مع أخته لأننا لا نبقي في بيوتنا إلا أسلاب المعارك لقد أعدنا للأخ أخته وإذا عمل صلاح الدين بقول عمر بن الخطاب فلكي يعمل ريكاردوس بقول عيسى: فرد أيها المولى الأرض التي اغتصبتها إلى أصحابها، عملًا بوصية السيد المسيح.

ثم وجه كلامه للحارس: ردوا للأخ أخته الأسيرة وزودهم بالطعام والماء ليعينهم على رحلتهم.

وصافح الرسول مرة أخرى مودعًا

- صحبتكم السلامة

نظر له الرسول ودمعت عيناه ثم قال بصوت شبه باكٍ

- والله إنك لملك أفضل بمائة مرة من الذي أحارب تحت إمرته.. كنت أتوقع أن تذبحني وتعلق رقبتي على أحد أبواب قصركم ردًّا على ما فعلناه بأسراكم ولكني وجدت لديك رحمة لم أجدها في أحد حتى في نفسي لن أنساك مهما حييت.

ابتسم له صلاح الدين قائلًا

- إنني ما جئت للحرب ولكني جئت للسلام فديننا يبدأ بالسلام وينتهي بالسلام ويحث على السلام فوالله الذي لا إله إلا هو والذي يعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسه إنني ما جئت أطلب مجدًا أو ملكًا أو نصرًا أتباهى به وسط العرب ولكني جئت لأعطي كل ذي حق حقه، قل لملككم إن فلسطين عربية وستظل أرضًا عربية طالما هناك نفسًا في صلاح الدين.. فلتصحبكم السلامة.

نظر له حسين متأثرًا حدثته نفسه

- فلتسقط الأقنعة عن الحكام العرب لنرى بعدها تلك الوجوه العفنة التي ما اجتمعت على مائدة مفاوضات حتى خرجت كما دخلت تلك الوجوه التي باستطاعتها إبادة شعب كامل للحفاظ على مكانها، ألا يوجد عالم يخترع مزيلًا لمنع التصاق كرسي الحكم بمؤخرة من يجلس عليه.. تلك الوجوه التي تاجرت بالقضية الفلسطينية في جميع أحاديثها ومؤتمراتها فقد اتفق العرب

دائمًا على ألا يتفقوا أما كان لهم أن يجتمعوا ولو لمرة واحدة ويقضوا على ذلك الورم السرطاني المسمى إسرائيل كيف نجح 4 مليون يهودي في استئصالها من مليار مسلم!

انتبه له صلاح الدين فسأله مستفسرًا

- ماذا هناك.. لماذا تحملق فيَّ هكذا؟

- هو انت ازاي كدا؟

- بتعجب: ماذا؟

- يعني ازاي كل حاجة فيك صح قوي كدا مع كل اللي بيتعمل دا وقادر إنك تعفي وتصفح.

- مبتسمًا: لابد من ضبط النفس ما أسهل الحرب والقتل وسفك الدماء فإن تعفو وتصفح يكن خيرًا.

- يعني تبقى انت الغالب في المعركة وتعفو عن الأسرى وهما المغلوبين ويقتلوهم ويمثلوا بجثثهم.

سكت لحظة ثم ضحك ضحكًا شديدًا تعجب له صلاح الدين سأله مستفهمًا، ما يضحكك؟

- أصل في الزمن بتاعنا إسرائيل لما بتشن عدوان على غزة حكامنا بيعملوا العكس بيطالبوا الفلسطينيين بضبط النفس اللي هما بيتدبحوا أساسًا... والنبي إحنا مسخرة.

- إنني لا ألوم حكامكم مثلما ألومكم أنتم إن الخضوع والاستسلام ليس من شيم الرجال.. الرجل من يستطيع أن ينصر الحق وليس من يصفق للباطل!

- عملنا كذا ثورة وبرضه زي ما احنا... بلح

- لن تنجح ثورات الشعوب إذا لم يسبقها ثورات الأفراد.

- يعني إيه؟

- ابدأ بنفسك

- آه.. هو انت من بتوع ابدأ بنفسك والضرائب مصلحتك أولًا وكلها 99% من مرتبك.

- ما هذا؟

- لا ما تاخدش في بالك.. بس ابدأ بنفسي ازاي، أروح أفجر نفسي في إسرائيل واخلص؟! تعرف ساعات الواحد بيفكر إن سبب الحروب والقتل والدم إن سبب فساد البشرية هو وجود الشيطان نفسه هو ربنا ليه خلق الشيطان عشان يعجز الإنسان ويكون سبب في إن جهنم تتحشر على آخرها هو ربنا عايز الناس تدخل جهنم؟

سكت لحظة وهو ينظر للسماء، تحدث إلى الله لأول مرة من قلبه أخبره أنه سيرفض تلك الأمانة لو عرضت عليه مرة أخرى... تلك الأمانة التي رفضتها الجبال وحملها هو!!!!

- أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم

اقترب منه صلاح الدين يربت على كتفه ثم أخذه من يده ليجلسه بجانبه

- إن الشيطان يغرك بالخطيئة ولكنه يتركك لتفعلها وحدك وعندما تأتي النهاية يصحبك إلى جهنم ولكنه لا يدخل معك وهو ليس له عليك سلطان سوى أنه دعاك فاستجبت فلا تلومن إلا نفسك.

- طيب والحل.. إحنا ما عندناش حد زيك في الزمن بتاعنا عندنا كل حاجة بتتحلل وتموت إلا حكامنا بمجرد ما يقعدوا على الكرسي بينقعوا نفسهم في محلول لضمان طول فترة الصلاحية وللأسف سوء الاستخدام.

- أنتم لستم بحاجة لي.. فكل إنسان يستطيع أن يكون صلاح الدين بالإيمان

- متعجبًا: إيمان!

- نعم الإيمان بالخالق ثم بالنفس التي خلقها.. إن ثورات الشعوب ليست أكثر من مجرد نباح كلب على فيل ولكن ثورات النفس تلك حقًّا لأعظم الجهاد كما قال نبينا (عليه الصلاة والسلام) وإن كان حقًّا ما تقول أن إسرائيل احتلت الأراضي الفلسطينية مرة أخرى فوالله لتلك هي الخاتمة

- خاتمة إيه؟

- خاتمتهم.. لقد جاء في كتاب الله

(وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ

الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًاعَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

- صدق الله العظيم

- مفسرًا: تؤكد الآيات على أن اليهود سيحكمون الأرض المقدسة مرتين فقط المرة الأولى بدأت بدخولهم مع يوشع بن نون عليه السلام وقد أكد القرآن الكريم أن المرة الأولى تمت في الماضي في قوله سبحانه " وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا "

أما المرة الثانية أو ما سماها القرأن بالآخرة فقد تحدثت الآيات عنها بصيغة المستقبل.. وعلى حديثك هذا لقد بدأ العلو الثاني والأخير لليهود على الأراضي المقدسة.

- هما مش معترفين بوجودنا كبني آدميين هيعترفوا بقرآننا.

- إذا كانوا لا يؤمنون بقرآننا فلابد أنهم يؤمنون بتوراتهم لقد جاء في كتاب التوراة أنه -أي الأشوري- هو الذي سيستخدمه الرب في القضاء على الشعب اليهودي وسيحتل نصف إسرائيل في أول أيامه وسيستخدم العصا

على إسرائيل وسيضرب قاضيها بقضيب على خده وقد جاء وصف دقيق لشعب القائد الأشوري بأنه شعب قوي لم يكن له نظير في الأزل ولا يكون بعده قدامه نار تأكل وخلفه لهيب تحرق وأمامه جنة عدن "أي الشهادة" يجرون كالأبطال رجال حرب يمشون كل واحد في طريقه ولا يغيرون سبلهم ولا يزاحم بعضهم بعضًا وبين الأسلحة يقعون ولا ينكسرون.. نصرٌ قريب إن شاء الله

- مين الأشوري دا.

- من المفترض أنه المهدي المنتظر كما نطلق عليه كمسلمين.

كان رد فعله كرد فعل نيوتن حينما سقطت التفاحة على رأسه واكتشف بعدها الجاذبية

- بس فهمت.. كلمة قاضي هنا أكيد يقصد بيها الولايات المتحدة اللي نصبت نفسها حاكم وقاضي وبلطجي كمان عشان تحمي إسرائيل

- من الولايات المتحدة هذه؟

- دي ست زانية كدا مستعدة تعاشر كل دولة عشان مصالحها تعرف الغريبة إن اليهود بيعتبروا احتلالهم فلسطين ودبحهم للفلسطينيين دفاع عن نفس وعن شعب مقدس بيرجع لأرضه المقدسة وان دا حق مشروع ليهم بس الأغرب فعلًا إنهم قدروا يغسلوا مخ العرب ويوصلوهم لقناعة إننا لازم نحقق السلام معاهم وانهم أصدقاء وحلفاء لينا وان أمريكا هي الحكم

العادل وان العراق وبن لادن وجنود حزب الله هما العدو الحقيقي وفي الآخر خدوا يا عرب.

ثم فعل تلك الحركة البذيئة بإصبعه الأوسط لم يفهم صلاح الدين ما فعله ولكنه عقب قائلًا

- صدق رسول الله حين قال: توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. إن اليهود لو سيطروا على العالم كما تصف لي لن يسمحوا بوجود دين غير دينهم أو أناس غير أناسهم إن لم تسبقوهم أنتم وحكامكم وتفعلوا بهم ما لا يتوقعون مثل هؤلاء يا بني لن يكفوا أيديهم أبدًا عن محاولتهم في هدم الدين ومنع الزحف الأسلامي تلك المعركة الأبدية بين المؤمنون والكفار، الخير والشر، الإنسان والشيطان وأحيانًا بين الإنسان ونفسه!

- تعرف.. فيه واحد اسمه هتلر قال إنه كان يقدر يبيد اليهود لكن ساب لنا شوية منهم عشان نعذره في اللي عمله معاهم.. بيأدبنا ابن المرة.

- ومن هتلر هذا؟

- دا واحد حارب اليهود بعدك بس إيه عمل معاهم الصح

- إنني لا أفهم معظم ما تقول والآن أخبرني كيف أساعدك وأرجعك إلى زمنك مرة أخرى؟

- بحيرة: أنا نفسي مش عارف.. يمكن لو كان ربنا خلقني في زمنكم كانت ذنوبي هتبقى أقل وما كنتش هابقى بالنجاسة اللي كنت عليها

دخل عليه أحد الجنود في فزع

- سيدي لقد بدأت قوات عز الدين في التقدم

- غاضبًا: الويل لهم.. إنهم لا ينوون القتال فقط بل ويمنعون الذين يستطيعون ذلك إنني ما جئت لقتال الصليبيين قط ولكن لوضع حد لتخاذل المسلمين أيضًا

ثم وجه كلامه إلى حسين

- لابد أن أتركك الآن سأعود فيما بعد لا تترك الخيمة مهما حدث هذا أأمن لك وسآمر لك بالطعام والشراب

تركه صلاح الدين وغادر الخيمة بينما نظر حسين لأحد الحراس محاولًا التذكر أين شاهده من قبل حتى تذكر وفجأة وجه له سؤال

- انت عيسي العوام مش كدا؟

- بتعجب: أتعرفني؟

- مبتسمًا: وانا اقول شفتك فين.. طبعًا أعرفك دا أنا شفت الفيلم 6 مرات

قطع كلامهما أصوات صراخ متعالية قادمة من الخارج.. خرجوا من الخيمة مسرعين لم يفعل حسين ما طلبه منه صلاح الدين وهو الجلوس داخل الخيمة حفاظًا على حياته نظر حوله ليجد حربًا مصغرة بين المسلمين

والصليبيين الذين يبدوا أنهم هاجموا الخيام بعد رحيل صلاح الدين لم يعلم ماذا يفعل نظر حوله ليجد جنديًا مسلمًا ملقًى على الأرض ينازع الموت اقترب منه محاولًا فعل أي شيء لينقذه ولكنه وقف عاجزًا أمامه لم يدرِ ماذا يفعل سوى مساعدته في نطق الشهادتين بادره الجندي محاولًا إخراج الكلمات بصعوبة

- واقدساه

أخذ الجندي يد حسين ووضع بها لعبة على هيئة حصان خشبي مكتوبًا عليه فلسطين موصيًا إياه

- أعطه لابني وقل له أن يحيا ويموت من أجلها

ثم أسلم الروح نظر له حسين دامعًا لم يكن يعلم ماذا يفعل بوصيته هذه ومن يكون ابنه ولماذا اختاره هو بالذات ليوصيه ولكنه شعر في تلك اللحظة بشيء يخترق جسده بشدة ظن أنه تأثير تلك اللحظة الأخيرة من حياة شخص لا يعرفه أوصاه وصية وأعطاه أمانة لا يستحقها ويشعر أنه غير جدير بها ولكن ذلك لم يكن شعور حزن فقد اخترق جسده فعلًا إحدى السهام الصليبية نظر بذهول إلى جسده الذي ينزف ويغرق دماء ومع ذلك لا يشعر بأي ألم ولكنه شعر بثقل غريب في يده التي تحمل الحصان الخشبي!

* * *

هدوء ثقيل يخيم على ظلام الغرفة يقطعه زئير الرعد فارضًا نفسه على السماء نظر خارج الغرفة حدثته نفسه بأن أحيانًا يخطئ بعض البشر أدوارهم في الحياة بأن يتخذوا دور القدر لبعض الناس ويحددوا لهم ما يجب أن يفعلونه ولا يفعلونه تحت شعار "نحن آلهة لا نخطئ" غير مدركين أن النفس إن لم تفعل ما تريده وما تحبه لن يكون لديها أسباب لاستمرار الحياة بل لن يبقى لها ذلك الخيط الرفيع الذي يربطها به كلما نظر لزوجته شعر بأن الموت على بعد خطوات منه ولكنه موت آخر للروح داخل الجسد بدون أن يحررها.

نظر لها طويلًا ثم شيع سيجارة لمثواها الأخير تحت قدميه فكر كثيرًا ولعن نفسه آلاف المرات ثم لعن تلك الوظيفة التي تقدم لها ولم يكن ليحصل عليها لولا أنه أخذ هذا الكائن الراقد على السرير الآن كنوع من ال option أوكازيون تخفيضات وكنوع من الدعاية "خد وظيفة وعليها زوجة هدية" غادر الغرفة لتحصين نفسه من تلك الدعوة المفتوحة من قبل الشيطان الذي ترك البشرية بأكملها وجاء له خصيصًا ليقدم له أحدث عروض ووصفات "كيف تتخلص من زوجتك بدون معلم؟" دخل غرفة ابنته ملاك نائم في هيئة طفلة اقترب منها ليطبع قبلة على جبينها تلك الحسنة الوحيدة التي فعلتها زوجته له والخيط الوحيد الذي يربطه بها

- يحيى

نظر خلفه مفزوعًا بصق في وجه من كان فيما سبق صديقًا مقربًا له همس في غضب

- حسين.. خضتني يا ابن المرة

- أشار له: تعالى عايزك

ثم خرج من الغرفة ولحق به يحيى الذي بادره بنفاد صبر وغضب

- ارحم دين أمي أنا مقضيها تحضير واستئذان وانت مقضيها جولة حول العالم دا انا لو كنت مت بدالك كان أشرف لي، إيه المشكلة المرة دي الجثة طلعت ضيقة عليك أوسعها لك من الجناب

- يا ابني اسمعني انت المرة دي رجعتني ييجي 8 قرون فاتت.. مش ملاحظ حاجة؟ معظم الجثث اللي اتنقلت ليها عدى عليها عهد وزمن.. جثث لناس عايشين في مكان وزمن مختلف ودا معناه إن الجثث اللي دخلت جواها ما تحللتش وانها مش لسَّا مدفونة.

- بتعجب: يمكن بس دي جثث ناس عادية مش أنبياء يعني

- ودا اللي هيجنني الجثة الأولى كانت لواحد نجس وانا أعرف إن جثث الصالحين بس اللي ما بتتحللش

- طيب وإيه العمل دلوقتي؟

- شوف لي واحدة تانية

- نعم.. أنا مش هاروح المدافن تاني أنا كل ما أروح أبل البوكسر مش هتنفعني لما أبقى سوسن

- تصدق أنا بافكر أقتلك وآخد جثتك على الأقل أكبر مشكلة هاقابلها هي ريحة شراباتك

بنفاد صبر

- أمري لله.. هو إيه اللي حصل المرة دي؟

- بفخر: قابلت صلاح الدين

- بغباء: صلاح الدين مين؟

- إحنا عندنا كام صلاح الدين...صلاح الدين الأيوبي

- عسل..... أنا نازل أجيب الجثة بس ورحمة أمي لو شفتك هنا تاني لاموتك أكتر ما انت ميت

- ما تتأخرش بس وهاتها طازة مش من العصور الوسطى

- تحب أسقعها لك بالمرة واشيلك منها البذر.. أبو شكلك واليوم اللي شفتك فيه

* * *

الصَّحْوَةُ الثَّالِثَةُ

2 فبراير 2006م

الساعة الثامنة مساءً

كانت رياح الجو عاتية وأمواج البحر ثائرة كفيلة بأن تنذر أن تلك الليلة ستكون كاحلة الظلام وشديدة الغضب شقت باخرة السلام طريقها في عرض البحر عندما تصاعد صوت عبد المطلب من كابينة أحد المسافرين كانت ضيقة اتسعت لأربعة أفراد عن طريق وسائل الضغط والتعذيب لم يستطع النوم مثل رفيقه في السرير المجاور الذي استيقظ من نومه صارخًا كالعادة نظر له بإشفاق ليست تلك الليلة فقط بل والليلة التي تسبقها وتسبقها ولمدة عام كامل كانت تطارده كوابيسه يوميًّا.. لم ينسَ تلك الليلة المشؤومة التي دخل فيها رجال ملثمون بالأقنعة السوداء وأجسادهم الضخمة وهي تحجب النور عنه لم يستطع أن يمحو من ذاكرته ذلك المنظر القادر على خلع قلب رجل من مكانه ووضعه تحت حذائهم لم يقبضوا عليه أو يقتلوه فقط اكتفوا بتلقينه درسًا صغيرًا وسط تصاعد صرخات زوجته وابنتيه، أحاطوا به، كلٌّ منهم كان يعلم ما يجب عليه فعله كأنه درب خصيصًا لذلك.. اقترب منه الأول وصفق على وجهه بكلتا يديه بينما ضربه الثاني على مؤخرة رأسه حتى يفقد الوعي ولا يقاوم أما الثالث هوى على ظهره بعصا خشبية كان يحملها معه جعلته يسقط على الأرض صارخًا من

الألم حتى جاءه الرابع وكان أشرسهم فقد قام بسحب خرطوم بجانب أحد الكراسي تستخدمه زوجته لحث ابنتيها على المذاكرة وقام بتوجيه ضربة به على مركز فحولته وكأنه يعرف طريقه جيدًا!

كان الأمر شديد القسوة والعنف حتى من هرعوا لتخليصه من إيديهم أخذوا نصيبهم مما يحدث له، المشهد كان ملحميًّا وبالتأكيد أن العناية الإلاهية تدخلت لتمنع صدور شهادة وفاة قبل موعدها بعدما ملأ الدنيا صراخًا وعويلًا من شدة الألم.

تفاجأ من صموده أمام هذا القدر من الضرب والركلات والشتائم البذيئة أنه لا يتذكر ارتكابه جرمًا يستحق عليه كل هذا.. لم يقتل لم يسرق لم يزنِ حتى أنه لم يوجه كلمة مسيئة لأحد سوى أنه أبدى رأيه أثناء جلوسه على القهوة في أحد المرات بأنه ضد التوريث وأن مصر ليست عزبة لأحد ولم يقل شيئًا بعدها!

شعر بالدم يتدفق في عروقه ساخنًا هائجًا مجنونًا وأن روحه تحترق عندما تصاعدت صرخات ابنتيه وضع يده على أذنه محاولًا إسكات صرخاتهما اقترب منه عبد الحميد مهدئًا إياه وهو رجل أجمع من حوله على وصفه بـ "الغلبان المسالم الطيب اللي عايز يعيش وماشي جنب الحيط ولو أستطاع أن يخترق الحيط ويمشي بداخله سيفعل عن طيب خاطر في أواخر العقد الثالث من عمره يسترعي الانتباه بنحافة قامته وطولها.. ذو وجه نحيل

مستطيل شاحب اللون ورأس صغير ينحدر خفيفًا إلى جهة تميل إلى الضيق يعلوها حاجبان مستقيمان متباعدان يظللان عينين تلمعان باللون العسلي الغامق وقد تساقطت أهدابهما يتوسطهما أنف دقيق وفم رقيق وذقن صغير مدبب غير متزوج واكتفى بتزويج اثنين من أخواته البنات ويعمل على تجهيز الثالثة توفى والده في نكسة 67 لم تكن له طفولة تذكر فعندما كان في السابعة من عمره كان يخرج من مدرسته الإبتدائي ويعود إلى بيته بعد الظهر فترة الغداء فلا يجد خبزة واحدة يقتسمها مع إخوته فيستيقظ في اليوم التالي ليخرج غضبه في هتافات الطلبة فكانوا يصرخون: الزعيم أكلنا المش... الزعيم علمنا الغش... وظل يهتف على هذا الحال حتى جف حلقه وانقطع صراخه عندما توفت والدته في زلزال 92 هنا فقد الشعور بالأماكن والأشياء حتى الأشخاص لا يميز ملامحهم نوعًا آخر من العزلة عرفه لأول مرة منذ ولادته.. بادره عبد الحميد وهو يربت على كتفه

- نفس الحلم.. يا ابني ارحم نفسك انسى بقى عشان تعرف تعيش

- بحرقة: أنسى؟! أنسى إيه ولا إيه؟! الضرب اللي كان هيموتني ولا كسرة نفسي قدام بناتي ومراتي اللي مش قادر ألمسها من ليلتها دا كفاية نظرة عينيها اللي بتدبحني كل ما تبصلي نظرة كلها خوف وعدم أمان وعندها حق إزاي مراتك تنام معاك تحت سقف واحد وهي عارفة انك مش قادر تحميها ولا تحمي نفسك حتى.

- إبراهيم.. خوفك دا مصيره حاجة من الاتنين يا تقتله يا يقتلك انت هربت من البلد وسافرت ودفعت انت ومراتك وبناتك تمن اللي حصل الليلة دي من بعدك عنهم كفاية كدا.. انت عايز إيه؟

اندفع صارخًا في وجهه

- عايز العدل.. عارفة ولا جِه عندنا لف ورجع تاني.. آه صحيح هتعرفه منين واحد زيك قرب على الأربعين من غير ما يتجوز ولا يخلف عيل يشيل اسمه من غير وظيفة محترمة بلده توفرها له أبوك مات في النكسة وأمك ماتت في الزلزال وسابوا لك كوم لحم في رقبتك حست بيك الدولة بلاش عوضتك عنهم لا وكمان بننضرب كأنهم بيكملوا على اللي فاضل مننا سرقوا لقمتنا وكتموا صوتنا وداسوا بجزمهم على كرامتنا وموتوا رجولتنا يبقى إيه باقي لينا تاني نعيش عشانه

جلس عبد الحميد بجانبه احتضنه بذراعه مواسيًا له

- أنا يمكن أكون زي ما بتقول حياتي اللي فاتت ضاعت واللي جاي مافيش أمل منه لكن أنا راجل مؤمن آمنت بالقدر خيره وشره وعارف إن ربنا شايل لي الأحسن وهيعوضني اخواتي البنات ربنا قدرني وسترتهم وربنا يقويني واكمل رسالتي مع التالتة.. انسى عشان تقدر تعيش انسى عشان نفسك تقدر ترتاح وتريح مراتك وبناتك وتقدر تبتدي من جديد وتكمل حياتك بيهم وعشانهم.

نظر له إبراهيم بتعجب فإذا كان عبد الحميد يتناول حبوبًا للطيبة المفرطة ما كان سيصل إلى تلك الدرجة من الرضا.. قطع عليهم حديثهم أصوات تتعالى من خارج الكابينة خرج عبدالحميد ليرى ما يحدث حتى تفاجأ بوصلة ردح بين زميله علي عبد الواحد وأحد الركاب العرب ربما يكون سعوديًّا ميزه من لهجته ذي وجه نحيف بارز العظمتين قاسي الملامح جاف النظرة يتحدث بغطرسة وتعالٍ واضحين

- أنا هاعلمك يا كلب ازاي تكلم أسيادك انت واللي زيك بتيجوا خدامين في بلادنا.

اشتعلت النار في رأس علي وتسارعت أنفاسه وتدفق الدم في عروقه وهجم كالثور الهائج عليه حتى تدخل من حوله بمن فيهم عبد الحميد لإبعادهما عن بعضهما وسط سباب وتهديد من كلا الطرفين، أخذه عبد الحميد إلى الداخل محاولًا إبعاده وتهدئته

- بغضب: قال خدامين قال.. ابن المرة نسي نفسه

أجلسه عبد الحميد وأشعل له سيجارة ثم جلس أمامه مستفسرًا

- إيه اللي حصل؟

- بانكسار واضح: ما عملتش حاجة صدقني.. كنت رايح أطلب العشا من الكافيتريا وانا راجع بالصينية خبطت في اللوح دا شوية أكل طرطشوا على هدوم جلالته

قاطعه عبد الحميد

- كنت اعتذرت وخلصت بدل الفضايح دي

- وربنا كنت هاعمل كدا بس ما لحقتش.. بكابورت واتفتح بعيد عنك

نظر بشرود إلى الباب وأكمل محدثًا نفسه

- كأنه ما صدق لقى حد يهزؤه.. طبعًا عالم مش شقيانة ولا طافحة الكوتة زينا عايشين ع الدهب الأسود أكل وفرشحة.

ربت عبد الحميد على ساقه لم يعد يعلم يواسي من أو من وهو نفسه بحاجة لمواساة

- خلاص يا علي.. حصل خير

انفجر المستودع الخفي في نفسه صارخًا بغضب في وجه عبد الحميد

- فين الخير دا هه.. فين الخير دا اللي بتقول عليه لما يبقى جوَّا متهانين وبرَّا متهانين، اشمعنى احنا اللي الدنيا ضيقة علينا وواسعة على غيرنا.. ما ترد عليَّ يمكن أكون غلطان يمكن يكون العيب فينا احنا.

أشار إلى إبراهيم مستشهدًا به

- عندك إبراهيم يمكن يكون هو اللي غلطان والعيب فيه.. تصدق صح العيب فيه كان المفروض يخرس خالص ويقطع لسانه كمان قبل ما ينطق كلمة تحسسه إنه بني آدم وله رأي.. بلاش إبراهيم قولي أنا غلطت في إيه تعليم وشهادات ومؤهل جامعي وأهلي اللي سفوا التراب عشان الحكومة

تيجي في الآخر تقول لنا مافيش تعيينات.. مافيش شقق.. مافيش جواز.. ناقص يقولوا لنا مافيش هوا تتنفسوه روحوا موتوا وريحونا.

جلس على الأرض باكيًا

- نعمل إيه بقى أنا واللي زيي هه.. نسرق عشان يقولوا علينا حرامية ويقطعوا إيدينا ولا نقتل عشان يعدمونا.. الناس اللي بتفهم عشمونا إن البلد فيها خير وخير كتير كمان بس اللي ماسكينها واكلينها وما ينفعش نسيبهالهم ولازم نقف في وشهم عشان ناخد حقوقنا ولو نطقنا يبقى مصيرنا زي ابراهيم كدا وألعن نعمل إيه بقى.. لا اللي جوَّا راحمين ولا اللي برَّا راحمين.. قولي نعمل إيه؟

نظر له عبد الحميد منكسرًا وهو يعلم جيدًا أنه آخر شخص على وجه الأرض يستطيع أن يجيب على هذا السؤال ولم يجد مخرجًا له سوى سخريته المعهودة.

- نعمل زار.. إحنا خلاص بقينا زي قابيل وهابيل بس للأسف ما حدش فينا عارف يواري سوءة أخيه على العموم إحنا راجعين مصر والريس وعد في البرنامج الإنتخابي إنه.....

استيقظ زميلهم الرابع من سباته العميق، جلس نصف نائمٍ وهو يحك أسفل ظهره ويمد يده ليتناول أقرب زجاجة مياه بجانب السرير هازئًا من عبد الحميد:

- إيه اللي أنا سمعته دا أنت بجد قُلت كلمة برنامج انتخابي وعايز تتجوز يا عبد الحميد انت يا دوبك تقف في المدرجات تشجع.

ضحك زميلاه في الغرفة حتى عبد الحميد ابتسم بينما أكمل هو حديثه

- انت أهبل يا عبد الحميد انتخابات إيه وبرنامج إيه كلنا عارفين ان الإنتخابات مسرحية سخيفة واحنا واخدين فيها دور الكومبارس أما بقى الإعلام دا الممثل الوحيد اللي حافظ دوره كويس انزل -شارك- انتخب طبعًا مع شوية أغاني وطنية ودموع ونهنهة والشعارات الياه بتاعتهم مصر محتاجالك، بلدك بتنده عليك مش عارف مصر عرفت اسمي منين عشان تنده عليَّ نفس الاسطوانة المشروخة دول حتى ما عندهمش أي ابتكار أو إبداع.

تجرع نصف زجاجة المياه وتجشأ بعدما وضع الزجاجة مكانها ثم أكمل حديثه

- ويا سلام بقى.. يا سلام لما تلاقي حد من المسؤولين طالع يقولك الشعب المصري دا شعب عظيم وشعب أصيل وأبهر العالم أول ما يتقال البق دا أعرف على طول إن الحكومة ناوية تفشخ الشعب في قرار وزاري يلغوا بقى الدعم ولا يزودوا الضرايب ولا يغلوا الأسعار وطبعًا مسلطين الكلاب بتوعهم في الإعلام عشان يعملوا غسيل مخ للناس وبرضه في الآخر البس يا شعب عشان خارجين.. اللي يغيظك بقى ويهري كبدك ويعلي الضغط

والسكر عندك يطلع لك مذيع ابن لذينا من اللي عنده كرش وحاجات من ورا طولها مترين وطبعًا بيقبض بالدولار يطلع يفشخ لك ضبه ويقول لك وما له لما الدعم يتشال الحكومة هتعمل إيه ولا إيه، يا ابن ..... يا بارد طيب اتنازل عن مرتبك كدا لمدة شهر عشان مصر وعلى فكرة فيه برضه مننا المطبلاتية اللي عايزين ياخدوا..

وأشار بأصبعه الأوسط في حركة بذيئة يعرفها المصريون جيدًا ثم عاد إلى نومه مرة أخرى بعدما ألقى تحليله عما يحدث في مصر مثل أفضل خبير استراتيجي دهسه قطار بضائع كوسيلة للضغط كي يعترف بالحقيقة!

مسح على دموعه وملم بقايا كرامته المهدرة، استوقفه عبد الحميد أثناء خروجه من الغرفة

- رايح فين؟

- أتنفس شوية مخنوق.. ينفع ولا النفس كمان حرام؟!

تركه عبد الحميد يخرج لم يكن ليفعل شيئًا له فكلهم متشابهون من حيث القهر والظلم وقلة الحيلة واليأس.

خرج علي من الغرفة وصعد على سطح السفينة لم تعد تحمل عيناه سوى تلك النظرة اليائسة القاتلة الضائعة الحزينة التي لا ترغب في الحياة ولا تريدها خانته دموعه وتساقطت ليخفيها سريعًا تجنبًا لأي نظرة شفقة أو كلمة عطف أو يد تمتد لتواسي جروحًا لا يمكن شفاءها لفت نظره ذلك

الخنزير الذي تعارك معه وهو يقترب مثل الحرباء من فتاة ويميل على أذنها ليهمس بشيء ما لتنظر له بعدها مطلقة إحدى الضحكات الرقيعة تردد صداها في أرجاء السفينة وضع يده على وسطها وسحبها وغابا بين المسافرين كان يعلم أين سيذهب بها، إلى غرفته طبعًا لم يؤنبه ضميره أو يشعر بذنب اقترفه بل ذهب ليكمل فعلته مع عاهرة، مخلوق نجس يعيش على أرض طاهرة تملكته رغبة في أن يذهب إلى غرفته الآن ويسحبه عاريًا من أحضانها ويلقي به في الماء مع ابتسامة لطيفة منه حتى يلقى ربه على هذا الحال وأي انتقام كان سيريده أفضل من سوء خاتمة لهذا الشيء ولكنه عدل عن ذلك فليتركه لله يصنع به ما شاء.

التقت عينه بعين رجل بجلباب صعيدي يفترش سطح السفينة وبيده قطعة خبز وبعض الجبن، أشار له أن يشاركه ولكنه رفع يده شاكرًا.. نظر حوله لم يكن هناك سوى شباب مطحون لا حول لهم ولا قوة سوى كسب الرزق لا ناقة لهم ولا جمل بوطن قليل الحياء لا يوزع رزقه على أبنائه بالعدل ضحك ساخرًا من نفسه ظل يردد كلمة العدل عدة مرات كأنه يذكر نفسه بها لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة سمع بها تلك الكلمة أو ربما لم يمر هذا الوقت أصلًا!

اقترب من أحد الواقفين بجواره سائلًا

- معاك سجاير؟

كان شابًا في مثل عمره تقريبًا ذا وجه رقيق صغير يعبر عن طيبة وسماحة شديدين شاحبًا جدًّا بعينن لامعتين في حزن واضح.. أخرج علبة سجائر من جيبه وقدم واحدة إلى علي مبتسمًا، أخذها منه وبيد مرتجفة، أشعلها، توهج وجهه وتراقصت عيناه مع اللهب

الوحدة والحزن والعجز والفشل في تحقيق أي إنجاز يذكر وكرامته التي دهست بالأقدام منذ قليل جميعهم تآمروا عليه وقرروا تحطيمه، انتشله من يأسه القاتل صوت رفيقه متسائلًا

- مصري؟

- ساخرًا: بيقولوا

- ياه.. هي كحلي قوي كدا

- لا وانت الصادق سوداء

- لوحدك

- معايا تلاتة من اصحابي وأنت؟

- معايا كلب بس نايم في الأوضة أحسن من مليون صاحب

- راجع مصر نهائي ولا أجازة وراجع؟

- لا أجازة نازل اتجوز وراجع تاني

- ساخرًا: تتجوز.. إنا لله وإنا إليه راجعون، انت عبيط؟! حد يبقى حر ويروح للسجن برجليه؟!!

- ابتسم في خجل: أعمل إيه بقى شر لابد منه وبعدين أنا باحبها من زمان أصلها بنت خالي وشبه متربيين مع بعض

- ماشي يا سيدي مبروك مقدمًا بس ما تنساش تعزمنا على الفرح

- إن شاء الله ابقى اديني عنوانك في مصر وانا...

بترت عبارته عندما اهتزت السفينة مرة واحدة وسكنت لحظات ثم اهتزت مرة أخرى بعنف نظر علي برعب حوله حين دوت صافرات الإنذار وذعر الركاب وارتطمت زوارق النجاة بالماء امتلأت السماء بصرخات هلع وفزع الركاب الذين تدافعوا خارج الحجرات عندما دوى انفجار أتبعه حريق هائل لم تمض لحظات حتى مالت السفينة من جهة اليمين فاتجه الناس إلى الجهة اليسرى.

شلت قدماه لم يستطع الحراك، منظر يعجز الخيال عن تصويره واللسان عن وصفه لم يستطع تحريك شفاهه بالشهادة عندما سمع الجميع من حوله يرددها توجه الشباب إلى الكبائن ليساعدوا النساء والأطفال وكبار السن على الخروج إلى سطح الباخرة وارتداء سترات النجاة ولكن بعضهم كان يهوي في النار قبل أن يصعد إلى السطح الأجساد كانت تنصهر إلى درجة أن صوت فرقعة الجلود أرعب الجميع من على بعد شاهد عبد الحميد يقترب منه بإحدى سترات النجاة وهو يصرخ فيه أن يرتديها لم يميز مما قاله سوى أن إبراهيم قد مات.

اختلط الدعاء بالبكاء والصراخ، بعض الناس أصيبت بهستيريا عدم التصديق والبعض فقد عقله والبعض الآخر مات قبل أن تغرق السفينة من هول الموقف، الدخان ملأ السماء، أحرقته عيناه والرؤية صارت ضبابية، صفعه عبد الحميد حتى يفيق من صدمته هذه وأمره أن يتشبث "بدرابزين" السفينة ولا يتحرك حتى يعود له، تركه وذهب يساعد مجموعة من الركاب في إلقاء "اللايف درافت" وهو يشبه برميل الفايبر جلاس يحمل بداخله قاربًا مطاطيًّا بمجرد أن يلمس الماء ينفتح ويتحول إلى قارب يتسع 55 فردًا به بعض المواد التموينية وإشارات استغاثة ضوئية لحظات مرت كالسنين قبل أن يعود إليه عبد الحميد محتضنًا إياه وهو يضعه داخل قارب ويجلس بجانبه.

كان آخر ما رآه على السفينة الرجل الذي تعارك معه ملفوفًا بملاءة سكيرًا ويترنح ضاحكًا وعلى الجانب الآخر من السفينة جلست سيدة عجوز تتمتم الشهادتين وقد أغمضت عينها وكأنها تقبلت مصيرها راضية بينما احتضنت سيدة أخرى صليبها في صمت وقبل أن ينطلق المركب توسل أحد الرجال وزوجته إلى قائد المركب أن يأخذ أبناءهم فقط

كانت تحوي ما يزيد عن 90 فردًا مع أنها لا تتسع سوى ل55 فقط شعر أنه لا يوجد أمل في نجاتهم مع رياح تتجاوز سرعتها 60 ميلًا في الساعة وأمواج يصل ارتفاعها لستة أمتار حتمًا سيبتلعهم البحر.

تحطمت الجنازير الحديدية واقتلعت من أماكنها من شدة الميل ومن بعيد رآها تغرق شيئًا فشيئًا

وضع يده على أذنه وأغمض عينه في محاولة منه لكتم الصرخات وأصوات المستغيثين وغاب عقله عمن حوله حتى وجد ذراع عبد الحميد تحيط به.. لم تمر دقائق حتى انقلب قارب النجاة بمن فيه، لم يحتمل عددهم تمسك بعبد الحميد الذي ساعده هو و ستة آخرين على التشبث بأحد البراميل الخشبية.

مرت الساعات كأنها سنوات بين ظلمة الليل وبرودة البحر كادوا أن يتجمدوا وهم يصارعون الموت، تتقاذفهم أمواج البحر الأحمر العنيفة والرياح التي كانت تهب من كل مكان، لا طعام ولا شراب فقط أسماك القرش تحوم حولهم، كان أول المغادرين عبد الحميد الذي ابتلعه البحر من بينهم، صرخ على مناديًا باسمه وقبل أن تمر لحظات ابتلعت الأمواج شخصًا آخر ولحق به آخر ثم آخر حتى لم يبقَ أحدًا متمسكًا بالبرميل سوى علي وسيدة لم تتجاوز الخمسين وابنها الذي اقتربت إحدى أسماك القرش وانتزعته بعد أن لوح لأمه بإشارة وداع قبل أن يبتلعه البحر صرخت صرخة مدوية وأردات أن تلحق بابنها ولكن علي تمسك بيدها وأعادها مرة أخرى للبرميل قبل أن تضربه أحد الأمواج وتقذفه بعيدًا عنهما ساعده قميص النجاة الذي يرتديه على البقاء على سطح الماء.

خارت قواه وأكله اليأس كان يتعثر في الجثث وهو يرتجف لم يعلم إذا كان من الخوف ولا من برودة الماء ولا من كل ما مر به، اشتاق لعبد الحميد ربما يراه الآن ليطمئنه كالعادة بابتسامته الحانية.

مر بجانب طفلة صغيرة ماتت وهي محتضنة إحدى عرائسها كنوع من المواساة، شعر بوحدة قاتلة، تمسك بالطفلة فهو أيضًا إنسان فإذا كانت الطفلة شعرت بالوحشة واستأنست بإحدى عرائسها فلماذا هو أيضًا لايستأنس بها حتى وإن كانت ميتة! إن الاحتفاظ بالعقل في تلك اللحظة معجزة حقيقية.

ككثيرٍ من الأطفال من هم في مثل سنها كانت تشبه الملائكة إلى حد كبير لم يكن من يراها يصدق أنها ميتة ربما تكون نائمة ولابد أنها تحلم وتلعب مع ملائكتها بينما أطلق هو ذلك السجين الذي بداخله.

- انتِ اسمك إيه؟.. نورا ولا مي، أنا هاسميكِ آية، معظم الأطفال البنات دلوقتي اسمهم آية، أنا بقى اسمي علي عبد الواحد عندي 25 سنة وصدقيني يا آية لما اقول لك إني ما عملتش حاجة أستحق عليها الموقف اللي انا فيه دلوقتي، كل ذنبي إني حلمت، كنت عايز أعيش زي أي بني آدم، حرام؟! ردي عليَّ يا آية حرام؟! ما لقيتش شغل في بلدي لا سرقت ولا قتلت سافرت واتهدلت عشان أشتغل وراضي والله العظيم راضي أنا نفسي أعيِّش أمي الغلبانة دي هتموت لو حصل لي حاجة، مالهاش غيري في الدنيا

وانا كمان ماليش غيرها، أنا نفسي أرجع مصر نفسي أشوفها ولو لآخر مرة ونفسي...

اصطدم شيئًا بظهره نظر خلفه ليرى جسد ذلك الشاب الذي كان معه في آخر لحظاته على السفينة وكان عائدًا ليزف إلى عروسه ولكن القدر سبقه إليها وزفه إلى السماء، نظر إليه وقد أصابه سكون الموت وأحاطت بوجهه تلك الهالة البيضاء وازرقت شفتاه، فجأة لم يعد يشعر بأطرافه وتملك منه الخوف

- آية أنا خايف... أنا خايف ما تسيبنيش

احتضنها وأغمض عينيه حدثته نفسه هل كتب على الشعوب المقهورة أن لا ينتصر الحق أبدًا وأن تذهب دماء أبنائه إلى غير رجعة وأن الغد أسوأ من اليوم والأمس أفضل من الاثنين لأنه ذهب ولأن الأسوأ لم يأتِ بعد!..... ثم غشاه النوم الأبدي الذي لا صحوة منه.

* * *

- يحيى...يحيى

كان ممددًا على السرير نصف نائمٍلم يفتح عينيه عندما سمع صوته الذي يبدو أنه اعتاده بعد وفاته!

فقط رد عليه بلا مبالاة

- حاضر يا حسين.. حاضر الجثة ما نفعتش ومش بعيد المرة دي تكون قابلت الملك فاروق وشاف مراتك فعجبته قام ضربك بالقفا ومت وجاي لي دلوقتي عايز جثة تانية.. حاضر الصبح هاجيب لك واحدة بس اطفي النور وسيبني أنام.

* * *

الصَّحْوَةُ الرَّابِعَةُ

14يونيو 2007م

الحرم المكي، فجرًا

"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"

ظل الصوت يتردد في أذنه حتى استيقظ بعد سبات عميق وبعد إلحاح كبير من ألم في عنقه قام حسين من غفوته لينظر حوله في تعجب وعلى وجهه جميع الأعراض الدالة على مرض "الغباء المؤقت" كان يعلم أين هو تلك المرة ولكن في أي زمن نقله يحيى، استوقف أحد الحجاج كان يطوف بجانبه متسائلًا

- لو سمحت احنا في سنة كام؟

- بتجهم: أفندم.. يعني حضرتك موقفني ومعطلني عن المناسك عشان تسألني إحنا سنة كام؟ انت إيه سفير إبليس عشان تلهيني عن الطواف.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله

تركه وأكمل طوافه نظر حسين مرة أخرى حوله محاولًا معرفة ما يحدث ظل يطوف مع الحجاج الذين كان عددهم قليلًا ولكنهم كانوا كالنمل الأبيض بملابس الإحرام بينما هو غريب بملابسه العادية، ارتقت الشمس في السماء واشتدت حرارتها أكثر فأكثر تأمل الناس من حوله هناك من أصابهم التعب الشديد فأخذوا يتحركون بصعوبة وهناك عجوز محمول داخل شيء أشبه

بالقفص ومن غطاه العرق من أعلاه لأسفله وشاب يحمل أمه العجوز التي بدت على حافة الموت وزوجة تتساند على كتف زوجها، تحولت الأدعية إلى ابتهالات مختلطة بالدموع.

وفجأة قطع عليه تأمله صوت رجل عجوز قد تجاوز الثمانين ليس بالطويل ولا القصير، كبير اللحية، أسمر اللون، أصلع الرأس، حسن الوجه كان يطوف بجانبه داعيًا بصوت عالٍ وهو يرفع يده للسماء باكيًا: اللهم اغفر لجدي، ثم أخفض يده ونظر للأرض كأنما استحى من دعوته هذه فقال: وما أظنك ستغفر له

تعجب حسين من دعوته هذه، تجاهله في بادئ الأمر وأكمل سيره ولكن فضوله قتله فعاد إليه مرة أخرى واقترب من الرجل في تردد وربت على كتفه، التفت له الرجل فبادره قائلًا

- السلام عليكم.. أنا آسف ما اقصدش إني أتصنت عليك بس غصب عني سمعتك وانت بتدعي لجدك واستغربت إنك تقول لربنا ما اظنش إنك هتغفر له إزاي تقول كدا؟ وانت هنا في قلب بيته وعلى بعد خطوات من نبيه.

- هل تعرفني.. وهل تعرف من أنا.. ومن جدي هذا الذي أقصده بدعوتي تلك؟

- هيكون مين يعني.. أهو عبد من عباد الله

- بحزن: أنا عبد الرحمن محمد، أنحدر من نسل عبد الله بن سبأ.. هل تعرف صاحب هذا الأسم؟

- بجهل: لا في الحقيقة أول مرة أسمعه.. ما اعرفهوش.

- ولا أظنك تريد معرفته، إن عبد الله بن سبأ هو رأس الفتنة في مقتل عثمان بن عفان "رضي الله عنه" وهو من أثار الفتن وزرع الحقد والكراهية في صدور المسلمين تجاه عثمان وهو أحد المشاركين في قتله.. أنا الملعون الذي يحمل عار أجدادي وورث لعنتهم في مقتل عثمان.

- يا ساتر بس انت عرفت منين إنك من نسله دا الواحد بيحفظ اسم أبوه بالعافية ولا فيه شجرة عيلة وكدا؟!

- عندما يكون لديك قاتل في عائلتك لن تنسى اسمه مهما حييت وسيظل عاره يلاحقك أنت وأبناءك وأحفادك وأجيال لا تعرفها أو تعرفك وما يربط بينكما هو الدم فقط، فما بالك إذا كان الدم الذي يحمله بين يديه هو دم "ذو النورين" وزوج ابنتي الرسول صلى الله عليه وسلم والمبشر بالجنة منه وثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضي الله عنه وأرضاه

اصطحب حسين من يده وجلس به في إحدى زوايا الحرم قائلًا

- سأحكي لك ما حدث وما فعله جدي على لسان خادم عجوز كان حاضرًا في أواخر خلافة عثمان حتى تعلم سبب دعوتي تلك، كان يدعى يزيد يقضي نهاره في رعاية الإبل وليلًا في حراسة المسجد وتنظيفه وفي مساء أحد الليالي

المشؤومة وبالتحديد مساء يوم الجمعة 18 ذي الحجة 35 هـ خرج من المسجد بعدما خلا من المصلين وأخذ في إطفاء المصابيح وغلق الأبواب ثم انضم لحراسة منزل الخليفة بعدما سمع بشدة الحصار عليه واحتمالية اغتياله في تلك الليلة وما إن اقترب من المنزل حتى تبين وجوه أقوام تجمهروا حول منزل أمير المؤمنين بخيلهم وأسلحتهم من بينهم جدي الذي كان يتزعمهم، كان ابن سبأ يوجه حديثه لجماعته محاولًا حثهم على الفتك بعثمان وتضليلهم صارخًا

- هناك آلاف من الأسد الغضاب زأرت تحمي عرين الحق فما أمام عثمان إلا الخلع أو القتل..

فما قولكم؟

- بصوت واحد: إننا في انتظار كلمتك فإن أمرت بشيء صدعنا بأمرك

عاد ابن سبأ يبث سمومه مرة أخرى قائلًا

- لقد أجمع أهل الدين على أنه من أهل الفساد، قتله فيه صلاح للعباد لذلك سنخيره فإما أن يتركها أو يقتل دونها.

اقترب الحارس منه وقد كان ناصرًا للخليفة عثمان وكان يرى أنه لا يستحق ما يضمر له من ابن سبأ وأعوانه فحدثه بلهجة أشبه بالرجاء

- ناشدتك الله أن لا تفعل، إنه ليس الخليفة وأمير المؤمنين فقط بل ذو النورين وزوج ابنتي الرسول والمبشر بالجنة وثالث الخلفاء الراشدين وأحد سادات قريش، أين عقولكم؟!

بحقد وكراهية أجابه ابن سبأ

- أما ما ذكرته فقد ارتد عثمان عنه بأفعاله تلك ونسبه لسادات قريش لا يشفع له إن الإسلام لا يعرف فضلًا لقريش سوى أن النبي محمد بعث منهم وانبعاث النبي من قريش لا يبيح لها التحكم في رقاب الناس إننا لا نريد سوى الخلاص من الجائرين ومن هذا الأحمق بالداخل!

اندفع الحارس مدافعًا بغضب

- ويحك ابن سبا لقد جئت شيئًا نكرًا، أتشتم رجلًا هو من صحب رسول الله وقد بشره بالجنة فأبشر أنت ومن معك بالنار

تعالت الهمهمات من حولهم فأدرك ابن سبأ أن كلام الحارس قد أحدث صدًى في نفوس من حوله فعاجله.

- لا بل رجل لما آل الأمر إليه انفرد به حتى استأثر لنفسه ولأصحابه وذويه وخالف نصًّا في القرآن يأمر بالشورى وأهدر أحكام السنة.. فهل جئت إلينا تلبس الباطل بالحق وتحتال علينا؟

- بل هو حق يراد به باطل إني أرى غدرًا واقعًا فعن مثل هذا نهانا النبي فربكم يمكر بالماكرين إن الدولة ليست دولتكم بل دولتنا نحن الفقراء

المطحونون.. يا ابن سبأ إنك تحشد الناس من حولك لتخوض بحرًا من دماء الأبرياء!

ثم وجه حديثه للناس صارخًا

- أيها الناس إن مكنتموهم من عثمان سيلحقكم ذل الدهر وعار الأبد وسوف يؤخذ من في البيت بغير ذنب اقترفه.. فهل رجعتم؟

نظر حوله فلم يجد صدًى لكلماته بعدما بث ابن سبأ سمومه بهم فحاول استدراكهم مرة أخرى

- إنكم تفتخرون اليوم بالقتال وعلى مقربة من قبر مولانا الرسول.. ألا استحييتم؟

محاولًا تخذيل من تراجع منهم بادره ابن سبأ

- كل من قام على الظلم أو القهر أو الاستئثار سيسقط

- الحارس بغضب: اسكت ولا تنطق فإن كلامك المسموم يفسد النفوس

- ابن سبأ هازئًا: ما أنت سوى كلب ينبح

- وما أنت سوى كلب مسعور.. أيها الناس أليس رجل منكم حر ذو شرف يغضب لله؟

ما فيكم من حر يأبى الضيم؟

وعندما وجدهم صامتين وقد تملك شيطانهم منهم وبلغ مبلغه صاح بهم

- والله لن تكفو عن هذا حتى ينزل الله بكم قارعة.. ألا لعنة الله على الظالمين.

ثم تركهم ودخل منزلًا تسلل منه إلى منزل عثمان لحمايته كان أول من قابله في منزل الخليفة رباح غلام عثمان فسأله عنه فأجابه بأنه بخير وأن الصحابة رضي الله عنهم حاولوا إيصال الماء إليه ولكنهم لم يستطيعوا بل وإن هؤلاء المارقين بالخارج قد تجرؤا على أم المؤمنين أم حبيبة عندما جاءت بالماء فضربوا وجه بغلتها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فنفرت وكادت تسقط عنها فتلقاها الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها، لقد استهانوا بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجوا عن الدين وقد عادوا الرسول نفسه بفعلتهم هذه، إنهم يدعون رغبتهم في خلعه ولكنهم لن يبرحوا مكانهم إلا بقتله.

غضب الحارس عندما أتى ذكر قتله فقال مدافعًا

- لا يحل قتل المسلم إلا في ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه أو كفر بعد إيمانه أو قتل نفسًا بغير حق وما بعثمان بأي من هذا.. تبًّا لهم، قاتلهم الله، إذن لم يأته أحد بأي طعام أو شراب؟

أردف الغلام-:

- إن زوجته السيدة نائلة بنت الفرافصة استطاعت أن تحصل على بعض الماء من البيت المجاور خفية ولكنها لما أعطته له وقالت: أفطر، نظر رضي

الله عنه من النافذة فوجد الفجر قد لاح فقال: إني نذرت أن أصبح صائمًا؛ فتعجبت سيدتي بأنه لم يأكل أو يشرب فكيف يصوم وعندما سألته قال رضي الله عنه: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلع عليه من السقف ومعه دلو من الماء وقال له: اشرب يا عثمان فشرب حتى ارتوى فقال النبي: ازدد فشرب حتى نهل ثم قال صلى الله عليه وسلم لسيدي عثمان رضي الله عنه: أما إن القوم ينكرون عليك فإن قاتلتهم ظفرت وإن تركتهم أفطرت عندنا فاختار رضي الله عنه لقاء الله ورسوله حتى أنه لما جاءت السيدة نائلة تطمئنه أن أبناء الصحابة قد جاءوا بعدتهم يدفعون الناس عن الدار فقال لهم: لا حاجة لي للدفاع ولا أريد أن تهرق بسببي قطرة من الدم؛ حينها بكت السيدة نائلة بكاءً شديدًا وتركته وخرجت من الغرفة وقد أكد رؤيته حين دخل عليه سيدي كثير بن الصلت ونصحه قائلًا:

- يا أمير المؤمنين، اخرج فاجلس في الفناء فيرى الناس وجهك فإنك إن فعلت ارتدعوا ولكن سيدي عثمان رضي الله عنه قال:

- يا كثير رأيت البارحة وكأني دخلت على نبي الله صلى الله عليه وسلم وكان عنده أبو بكر وعمر فقال لي: ارجع فإنك مفطر عندي غدًا ثم قال: ولن تغيب شمس هذا اليوم والله إلا وأنا من أهل الآخرة.. ها هو سيدي كثير.

أقبل عليهم كثير بن الصلت وهو أحد صحابة نبي الله صلى الله عليه وسلم وقد ظهر على وجهه الهم والحزن على الحال الذي أصبح عليه عثمان فبادره الحارس: السلام عليكم يا بن الصلت

- وعليكم السلام أيها الشيخ الجليل.. اذهب يا رباح أحضر سراويل أمير المؤمنين وأعدها.

ذهب الخادم فاستفهمه الحارس عن طلبه هذا فأطرق رأسه وقال

- إنه يخشى أن يقتل وأن يتكشف رضي الله عنه

تأثر الحارس بمطلبه هذا فقال غاضبًا

- إن ابن السوداء الذي حرضهم على هذا؛ ذلك اليهودي عبد الله ابن سبأ والذي أسلم حديثًا وإني والله لا أعلم صحة إسلامه هذا فقد أخذ يتنقل في الحجاز والبصرة والكوفة والشام يريد أن يضلل الناس ويدعي أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب وزعم أن أمير المؤمنين عثمان قد أخذ الخلافة بغير الحق.. قاتله الله هل لي برؤيته؟

اصطحبه كثير إلى غرفة عثمان قائلًا

- إن أبناء الصحابة بالداخل لقد سهروا طوال الليل يهددون الواقفين عند الباب ويدافعون عن أهل المنزل لقد بتنا ليلتنا في اضطراب وقلق إلا عثمان قضى ليلته يصلي ويقرأ القرآن.

دخلوا غرفة الخليفة رأوه جالسًا والقرآن بين يديه يقرأ فيه ولا يلتفت يمينًا أو يسارًا وعنده السيدة نائلة زوجته واقفة والدموع ملء عينيها والحسن والحسين وغيرهما من أبناء الصحابة وفي أيديهم سيوف ظلوا هكذا حتى تحدث عثمان قائلًا

- أغمدوا السيوف وارجعوا فإن الله قد عهد إليَّ وأنا صابر عليه

ثم وجه حديثه إلى غلمانه قائلًا

- من أغمد سيفه فهو حر

فأعتق بذلك غلمانه ثم قال رضي الله عنه

- إني أريد أن آخذ موقف ابن آدم حين قال: لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين.

ثم وجه حديثه إلى الحسن قائلًا

- ارجع يا بني.. إن أباك الآن في شغل عظيم من أمرك

خرج الحسين وأبناء الصحابة من غرفته ولكنهم لم يصغوا لقوله وجلسوا للدفاع عنه وظل جالسًا يقرأ القرآن ولا يبالي بما حدث إلا نائلة كانت لا تكف عن البكاء من شدة الخوف عليه

قرر الحارس وقتها أن يخرج قاصدًا ابن سبأ لقتله وبذلك يقضي على رأس الفتنة فخرج من منزل عثمان وهو يشق طريقه بين المتجمهرين يبحث

بعينيه عنه حتى رأى أحد أعوانه يدخل خيمة فأخرج خنجره ولحق به استوقفه صوت إبن سبأ وهو يتحدث مع رفقاء له بالداخل فوقف يسترق السمع

- أثناء انشغال أبناء الصحابة بالدفاع عن عثمان ستدخلان أنتما إلى بيت المال وتستولوا على جميع ما به من أموال واتركوا لي دم عثمان فإني كفيلٌ به.

رد عليه أحد الموجودين بالداخل

- لم أكن أعلم أن مخططنا سينجح لتلك الدرجة في زرع الفتنة والتفرقة بينهم والآن لم يعد بيننا وبين بيت المال سوى طرفة عين ونصبح أثرياء

ضحك ابن سبأ ضحكة مسمومة ورد عليه

- ولو أردت التفرقة بين الأمة بأكملها لفعلت ليروا ماذا يمكن أن يفعل ابن السوداء كما ينادونني.

- يا ساتر يا رب هو جدك دا كان إيه؟! اللي بيجري في عروقه مش دم دي ميّة مجاري

كان هذا حسين الذي لم يحتمل أن يكمل العجوز كلامه دون أن يعقب عليه

- لقد نلت في حياتي من فضل الله وهدايته ورحمته بي ما يعجز اللسان عن شكره يكفي أن الله لم يأخذني بذنب جدي الذي أحيا به وعاره الذي

أحفظه بداخلي كما يحفظ القلب بين الضلوع؛ لقد كان يملك ضميرًا ميتًا قادرًا على الفتك بالعباد وذا قلب أسود كظلام القبور، لقد عقد تحالفًا مع الشيطان وها أنا ذا أرث عاره وفتنته إلى الأبد هذا قضائي.. وما حيلة المرء عند القضاء؟

نظر له حسين نظرة ذات مغزى وكأن الرجل بقصته وعذابه وألمه هذا قد تخلل إلى روحه فسكنها حدثته نفسه بإنه لا يوجد مثل هذا الرجل حي الضمير ممزق الروح يحمل فتنة أجداده ويخشى من الله أن لا يقبله بسببهم فقد ذهب الرجال ذوو القلوب ولم يعد إلا الرجال ذوي البطون.

قاطع الحارس تفكيره متسائلًا

- أكمل لك أم مللت؟

أشار له حسين برأسه أن يكمل

ما إن سمع الحارس كلام ابن سبأ المحرض على نهب بيت المال حتى أخرج خنجره وقرر أن يقتله فور خروجه من الخيمة ولكن استوقفه صراخٌ وعويلٌ يأتي من منزل الخليفة فعاد مسرعًا ليرى دخانًا يتصاعد من جهة باب الدار وأصوات استغاثة من الداخل تصرخ

- ويلاه قد أحرقونا.. قد أحرقونا

كانت أعدادهم قد زادت عن قبل وأصبحت ما يقرب من الألف أخذوا يرمون الدار بالنبال المشتعلة وبعضهم يريدون الدخول وأبناء الصحابة بمن

فيهم الحسن والحسين يدافعون عمن بالداخل وما إن ألقى بعض الرجال منهم بالحبال على أسوار المنزل حتى دخلوا عنوة وهجموا على من في الدار وكان بينهم الحارس الذي تسلل كواحد منهم ليقصد غرفة الخليفة ويدافع عنه ولكن قد سبقه رجل يدعى كنانة بن بشر التجيبي أحد رؤوس الفتنة وهو من قام بحرق باب بيت عثمان ومعه، بعض رجال الفتنة لم يقتربوا من الخليفة كأنهم ينتظرون شيئًا كل ما فعلوه أن دفعوا بمن يحاول الدفاع عن عثمان فضربوا بغلمانه وجرحوا الحارس الذي سقط على الأرض وهو يتخبط في دمائه لم يمت وظل على حالته بين الوعي واللاوعي نظر حوله وعيناه لا تفارق عثمان حتى دخل الموت الأسود وهو لقب كانوا يطلقونه على جدي عبد الله بن سبأ حينذاك فخنق عثمان رضي الله عنه خنقًا شديدًا حتى ظن أنه مات ثم دخل بعد ذلك محمد بن أبي بكر الصديق وهو الوحيد من الصحابة الذي شارك في هذه الفتنة فوجد عثمان حيًّا فقال له:

- على أي دين أنت يا نعثل؟ ونعثل هذه سبة تقال للشيخ الأحمق فرد عليه عثمان رضي الله عنه وأرضاه

- على دين الأسلام ولست بنعثل ولكني أمير المؤمنين

فقال بن أبي بكر

- لقد غيرت كتاب الله

فرد عثمان

- كتاب الله بيني وبينكم

فتقدم إليه محمد بن إبي بكر وأخذه بلحيته وهزه منها وقال

- إنا لا نقبل أن نكون يوم القيامة ممن يقولون (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)

فرد عليه عثمان رضي الله عنه

- يا ابن أخي إنك أمسكت لحية كان أبوك يكرمها

وكأن عثمان رضي الله عنه بهذه الكلمات قد أزال الغشاوة التي كانت تحجب الحق والصواب عن قلب محمد فاستحى محمد بن أبي بكر مما فعله وخارت يده من على لحية عثمان وبكى ثم وقف وتركه وأمسك بسيفه وبدأ يدافع عن عثمان رضي الله عنه ولكنهم جرحوه وأسقطوه هو الآخر

ثم تقدم لعثمان كنانة بن بشر أحد رؤس الفتنة وقد حمل السيف وأشهره على رقبته قائلًا

- اخلعها (أي الخلافة) وندعك

فقال عثمان

- لست خالعًا ولا أنزع سربالًا سربلنيه الله

ضربه كنانة بالسيف فالتقاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطع يده فقال

عثمان عندما ضُرِب هذه الضربة

- بسم الله توكلت على الله إنها أول يد كتبت المفصل سبحان الله العظيم

ثم تساقطت الدماء على المصحف وقد أقسم الحارس أنه رأى الدماء تسقط على كلمة "سيكفيكهم الله"

بعد ذلك حمل عليه كنانة وضربه بعمود على رأسه فخر رضي الله عنه على جنبه وهم كنانة بضربه بالسيف في صدره فأسرعت السيدة نائلة بنت الفرافصة زوجته تدافع عنه وتحميه من السيف فقطعت أصابعها وطعنه كنانة في صدره؛ ثم قام بعدها رجلٌ يدعى سودان بن حمران بحمل السيف وطعن عثمان رضي الله عنه في بطنه واتكأ على السيف بجسده ليتأكد من اختراق السيف لجسد عثمان ومات رضي الله عنه بعد هذه الضربة ثم قفز عليه عمرو بن الحمق وهو أحد الخوارج المجرمين وطعنه في صدره تسع طعنات وهو يصيح

- إن هذه الثلاثة الأولى لله وهذه الست لشيء في نفسي

هنا صرخت السيدة نائلة على رباح غلام عثمان وهي تصيح

- إن أمير المؤمنين قد قتل.. إن أمير المؤمنين قد قتل

وبينما هم خارجون قفز غلام عثمان رضي الله عنه على سودان بن حمران فقتله فقام رجل من أهل الفتنة يدعى قترة بقتل الغلام فقام غلام آخر

بقتل قترة؛ فقام القوم بقتل الغلام التاني، قتل في هذا اليوم عثمان رضي الله عنه واثنين من غلمانه وبعض الصحابة وبعض أبنائهم وجرح عبد الله بن الزبير كما جرح الحسن والحسين رضي الله عنهما واللذان صاحا بعدما رأيا عثمان يتخبط في دمه: كيف يقتل عثمان ونحن في داره؟ ما الذي نقوله لوالدنا إذا سألنا عن ذلك؟

في نفس الوقت الذي توجهت فيه مجموعة أخرى ممن يتبعون بن سبأ لبيت المال وقتلوا الحراس عندما صرخوا: النجا النجا؛ واستطاعوا الاستيلاء على أموال كثيرة من بيت المال وهربوا بها.

أخذ الحسن والحسين من قتلوا في هذا اليوم ودفنوهم بعدما صلوا عليهم ونقلوا ممن جرحوا إلى أقرب منزل يعالجوا به وكان من بينهم ذلك الحارس حتى أتاهم علي بن أبي طالب فكان أول من فعله أن لطم الحسين وضرب الحسن في صدره وسب عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وصرخ فيهم

- كيف يقتل وهو بين أيديكم؟

- ثم دعا إلى الله: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.. اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

لقد لحق بالخليفة بعد موته من الإهانة ما يشيب له الولدان فأهل الفتنة لم يكتفوا بقتله في بيته وعلى فراشه وأمام أهله ولكنهم منعوا أيضًا الناس من الصلاة عليه وقالوا لا يدفن بمدافن المسلمين كأنه كفر أو كان من

المشركين وظلت جثته في منزله ثلاثة أيام ملقاة وأهله وأنصاره يبكونه ويبكون الإسلام من بعده حتى حمله الصحابة رضوان الله عليهم إلى مكان خارج المدينة يسمى (حش كوكب) وهو غير المكان الذي يدفن فيه أهل المدينة موتاهم لأنهم كانوا يخشون عليه من أهل الفتنة أن يخرجوا جسده ويمثلوا به "رحم الله ذا النورين" لقد كان قتله طعنة غدر وفتنة أعدت بدقة لتوجه إلى قلب الأمة بكل خسة.

بقيت المدينة خمسة أيام بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه بلا خليفة أثناء ذلك خشي أهل الفتنة على أنفسهم إن لم يقبل أحد الصحابة الخلافة أن يجتمع عليهم القوم ويقتلوهم فتنازعوا على ثلاثة كانوا اتفقوا على أن يولوا أحدهم فالأمصار يريدونها لعلي أما الكوفيون يريدونها للزبير وأهل بصرة يريدونها لطلحة ثم ما لبسوا اجتمعوا على علي بن أبي طالب فذهب وفد منهم إليه وقالوا له

- إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع؛ أقدم لنبايعك

رفض علي بشدة وأجابهم: إني خارج منها فلا حاجة لي فيها على أي حال؛ وتمثل بمن قال: لا تخلطن خبيثات بطيبة وأخلع ثيابك منها وانج عاريًا

وعندما وجدوا رفضه جمعوا أهل المدينة وقالوا لهم

- إنكم أهل شورى وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلًا تنصبونه ونحن لكم تبع وقد أجلناكم يومكم فوالله لئن لم تفرغوا

لنقتلن غدًا عليَّ وطلحة والزبير وأناسًا كثيرًا.

وهذا يوضح قمة الخروج عن الدين وإباحة الدم من هؤلاء الفجرة القتلة الخوارج ليثبتوا أنهم على حق.

اجتمع الناس على علي فذهب إليه جماعة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير وعلى وجههم آثار الانقباض وقالوا

- جئنا نبايعك للخلافة لأننا لا نرى خيرًا منك ولا أحد أحق بها منك

فقال لهم

- دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول

فألحوا عليه قائلين

- نناشدك الله.. ألا ترى ما نحن فيه؟.. ألا ترى الإسلام؟.. ألا ترى الفتنة؟.. ألا تخاف الله؟

فوافق بعدما سمع تأنيبهم؛ على أن تكون المبايعة في المسجد ولم يكد ينطق بالموافقة حتى تهللت وجوه الناس فرحًا ودخلوا المسجد وقرأ علي الفاتحة وصلى بالناس ثم تقدم طلحة منه ومد يده وصافحه قائلًا

- إننا نبايع سيدنا ومولانا الإمام علي بن أبي طالب على كتاب الله وسنة رسوله ونبيه؛ ونسلم له النظر في أمورنا وأمور المسلمين لا ننازعه في شيء ونطيعه فيما يكلفنا به من الأمر وألا خليفة سواه.

وبعد أن بايع طلحة تنحى وتقدم الزبير ثم بايع غيره من الأمراء أفرادًا وجماعات فأصبح علي من تلك الساعة أمير المؤمنين وخليفتهم؛ أما الحارس فقد تكفل الحسن رضي الله عنه به بعدما كسرت فخذه ليلتها إثر ضربة سيف وقد ظل غائبًا عن الوعي حتى يوم المبايعة وقد كان يجلس في فناء المنزل حين دخل علي إلى المنزل بصحبة أحد الصحابة وقد سمعه يقول

- لما تولى عثمان الخلافة عزل الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته كما فعل بعمرو بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتح وغرس الإسلام فيها فعزله وولى مكانه أخاه عبد الله بن أبي سرح وهو أخ عثمان من الرضاعة وهو يعلم أن عبد الله هذا كان في جملة من ارتدوا بعد إسلامهم ولحق بالمشركين وقد أهدر النبي دمه ولكن عثمان أخذ له الأمان بعد فتح مكة ثم أن عثمان أسرف إسرافًا شديدًا من أموال بيت المال وكان يعطي أناسًا من قرابته طردهم النبي وقد أساء إلى جمع من الصحابة ونفاهم عن أوطانهم بالإضافة إلى أنه زاد كثيرًا من الضرائب على الأسواق وحمى البحر من أن تجري فيه سفينة إلا تجارته وغيرها من الأمور الذي فعلها بدون وجه حق فعندما تجورالولاة تأتي الفتن وينتشر القتل.

هنا دافع "علي" عن عثمان قائلًا

- لا أنكر أن عثمان أخطأ في بعض الأمور ولكنه خطأ يستوجب عليه اللوم لا القتل

فقال الصحابي

- لقد أحدثوا صدعًا بين المسلمين بفعلتهم هذه لقد قتله ابن السوداء غدرًا كما قتل وحشي حمزة سيد الشهداء فوالله إني لأخشى عليك أن يكون بعض الناس قد بايعوك وفيهم من يضمر لك سوءًا فأخشى أن يهم بعضهم بنقض المبايعة

- مثل من.. أتقصد طلحة والزبير؟

- بل معاوية، إنهم بصحبته دائمًا ولا تغفل إنه ابن عم عثمان رحمه الله وقد سمعت أنه يطالب بدمه

نظر إليه علي نظرة استغراب ودهشة

- أمني يطلب معاوية دم عثمان؟.. اللهم إني بريء من دم عثمان

- لقد سمعت أن ما يقرب من ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد وضعوه على منبر في دمشق ولا يرضون إلا الانتقام حتى الآن هم يتحدثون؛ وأخشى أن يتحول الحديث إلى فعل ولا تنسَ يا علي أن لبعض الكلمات وقع الطعنات وهذا ما يفعله طلحة والزبير في نفس معاوية الآن

نظر علي حوله وتحدث كأنه يخاطب نفسه

والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون وبعث محمدًا بالحق لقد تنبأت بكل هذا قبل حدوثه وقد قلت لهم دعوا عثمان وشأنه لا تقتلوه لأن قتله

سيكون سببًا لفتنة عظمى لطمع بعضهم في الخلافة لأنفسهم وقد بايعوني وأنا أعلم أنهم يضمرون غير ما يظهرون فإن طلحة والزبير كلًّا منهما يريدها لنفسه ولو أن تنازلي عن الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها اليوم ولكنني أعلم أنها ستصبح فوضى من بعدي ويصبح كلٌّ منهما يطلبها لنفسه حتى يفني أحدهما الآخر وتصبح حربًا يقتل فيها آلاف من المسلمين فضلًا عن معاوية في الشام والذي يطمع أيضًا في الخلافة ولا تصدق ما يدعيه من المطالبة بدم عثمان لأنه لو أهمه أمره حقًّا لنصره قبل مقتله ولكنه اتخذ قتله ذريعة يلتمس بها الخلافة لنفسه.

أكثر الناس ضلالة عارف بالله لا يهديه قلبه فوالله الغيرة على الإسلام هي وحدها من دفعتني لدخول الخلافة؛ والذي نفسي بيده إني لا أنشد ملكًا بينكم فأنا أزهد أهل الأرض في هذا؛ لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما رأيت أحدًا أحق بالخلافة مني فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته، ثم انتقل أبا بكر إلى رحمة الله وما أرى أحدًا أحق بالأمر مني فبايع الناس عمر فبايعته ثم انتقل عمر أيضًا إلى رحمة الله وما أرى أحق بهذا الأمر مني فبايع الناس عثمان فبايعته؛ ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين والآن يتهمونني في عثمان فوالله أن تخرج من الأرض طاهر النفس لا لك ولا عليك خيرٌ من أن تلقى الله وعلى كفيك دماء شهيد؛ إني ما كنت أرغبها ولكنه قدري أن أذود عن العدل مهما يقف في

سبيلي هو الحق أخرج من أجله وإن كان لابد من الشهادة فلتكن مشيئة الله فإن الأجل مقدر له أن ينتهي يومًا.

- لله درك يا أبا الحسن لقد كلفت من أمرك عسرًا.. إني أرى أن ترسل لمعاوية وتحادثه وتطالبه بالمبايعة لك؛ قولة ناصح لك لن يضلك والله لن أجامل في مصير المسلمين إني أدعوك لحقن الدماء ولا أنشد إلا الخير لك.

نظر لعلي وهو يتحدث وقد زاده الحزن هيبًا ووقارًا

- لقد استشرت قلبي فيما أنا صانع ومن يدلج نحو الشمس لا يشغله الليل رحم الله عمر كان يبكي دائمًا ويقول: يا دنيا غري غيري فليرحمهم الله كانوا رجالًا فرغوا من هذه الدنيا وولوا وجوههم للآخرة أما كان لمعاوية وطلحة والزبير أن يجتمعوا ويروا ما فيه خيرًا لهذه الأمة عوضًا عن المطالبة بقتلي وهم يعلمون أني بريء من دم عثمان أما كان لهم.....

قطع عليهم حديثهم صوت عبد الرحمن بن عدس وهو أحد رؤوس الفتنة يمر من أمام المنزل وهو يترنح وقد أنهكه السكر يتخبط في الطريق وبين البيوت ويحاول أن يخاطب المارين ولكنهم يتباعدون عنه في تقزز وبعضهم يدير له ظهره وهو يصرخ في الفضاء صائحًا

- آه من طول الطريق... آه من قلة زادي فيه؛ قتلوا عثمان قتلوه وقد كنت معهم، قطعوا يده ثم حمل عليه كنانة وذبحه ثم طعنه عمرو وسودان كنت

حاضرًا ولم أمنعهم بل كنت حاضرًا أشهدهم وقد ندمت وشربت وما ارتويت وزدت وما سكرت عثماااان هل تغفر لي عثماااان أجبني

- ويحك.. أتجهر بها والله لأقطعن حشاشة نفسك

هم الصحابي أن يشهر سيفه ويقتله ولكن علي استوقفه قائلًا

- اتركه ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا وليفعل الله به ما يشاء

اقترب عبد الرحمن منهما وهو ما زال مترنحًا من أثر الخمر محدثًا علي

- يا ابن أبي طالب ما الذي يطفئ نيران الندم؟

فأشاح علي بوجهه ونظر إلى الجهة الأخرى وهو يقول له

- اغرب عني

- ألا تنظر لي؟.. عطشان سقاك الله نضب الريق وجف الحلق

- أنا لا أنظر في وجه امرئ لا ينظر الله إليه.. اغرب عن وجهي قبل أن أتركه عليك فيرديك قتيلًا وحسبنا الدماء التي سالت.

تركهم عبد الرحمن يتخبط في سكره صائحًا

- آه من طول الطريق.. آه من قلة زادي فيه

قال الصحابي وهو يتمالك نفسه من الغضب

- خيبة الله على هذا العبد ذي الريح النتن والله إني أشم رائحة دم عثمان في يده

فأجابه علي داعيًا

- لعن الله رجالًا خذلونا

- وجدك برضه هو اللي كان سبب الفتنة بين علي ومعاوية؟.. أعوذ بالله جدك دا كان إيه؟

ما عندوش أهل يسألوا عنه؟... ما عندوش بقال مشكك منه؟

كان هذا حسين مقاطعًا العجوز مرة أخرى

- إن معاوية لم يكن بحاجة إلى أحدٍ أو سببٍ ليعلن عن عداوته فقد صدق علي عندما قال أنه يطمع في الخلافة ولو كان يريد نصرة عثمان لنصره فعلًا قبل أن يقتل ولكن جدي فعل بعد مقتل عثمان ما هو أبشع من فتنته لقد فرض إمامة علي وكان أول من أظهر طعنًا على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم وقام بسبهم؛ كما ادعى النبوة وزعم أن علي بن أبي طالب هو الله (تعالى الله عما يصفون) وقد قال من قبل عندما كان يهوديًّا ادعى الألوهية في يوشع بن نون وفي موسي؛ وعندما بلغ ذلك أمير المؤمنين علي استدعاه وسأله فأقر بذلك وقال نعم أنت الله وأنا نبي؛ فقال أمير المؤمنين علي: ويلك قد سخر منك الشيطان عن هذا ثكلتك أمك وتب، فأبى فحبسه علي واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار؛ وقال علي عن ذلك إن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روحه ذلك؛ أما الحارس فقد أقسم أنه كان يسمع صريخًا يشق جوف الليل في فزع معذب يأتي من ناحية قبره ليلًا

- طيب والحارس إيه اللي حصل له؟

نظر له العجوز ولم يجب فقط اكتفى بالابتسام وهو ينظر حوله قائلًا

- قد أسدل الليل نقابه ومالت الشمس للغروب؛ إن الكعبة تفيض بالراحة والسكينة ليلًا وتزداد جمالًا على جمالها وعلي الذهاب إلى المدينة فالحياة تحلو بالقرب من حبيبي "يقصد قبر النبي" ثم نظر للسماء قائلًا

هكذا الإنسان منا تغره نفسه دائمًا وهو لا يملك ما يكسب غدًا ولا بأي أرضٍ يموت لقد جئت إلى هنا منذ ما يقرب من أربعين عامًا ولكن روحي سبقتني إلى هنا منذ أن حييت حتى أنه عندما تأتي زوجتي لزيارتي هنا وتسألني: هل أوحشناك أنا والأبناء؛ لا أجيبها فلم يعد في نفسي مثقال ذرة من حب أعطه لأحد وصارت النفس والروح لله؛ أما الدنيا فقد غسلت يدي منها وها أنا ذا أحيا هنا لحراسة قبر حبيبي وشفيعي وخير الأنام.. أتعلم لقد مات جدي منذ ما يقرب من ألفي عام واليوم تحدث فتنة أخرى يتقاتل فيها فئتان من المسلمين على مرأى ومسمع العالم الإسلامي وهم يشاهدون ولا يفعلون شيئًا إياكم والفتنة يا بني؛ احذروها فإنها بلاء تلك الأمة.

* * *

الصَّحْوَةُ الخَامِسَةُ

الرِّق

2048م

اغضب - اصرخ - املأ عنان السماء اعتراضًا عما يحدث حولك انسف تلك الجبال اليائسة الراقدة بداخلك وأطلق سراح ذلك الطفل السجين في روحك قبل أن تحترق إلى الأبد.

اكذب... اكذب حتى يصدقك الناس تمايل وتعثر في تلك الحجارة التي يلقيها الناس أرضًا لكي تسقط... اُحْبُ قبل أن تخطو خطواتك الأولى مشيًا.. اصعد القمر.. واصنع دواءً تحارب به مرضًا وأنتج سلاحًا تدفع به ظلمًا عن وطنك ثم اخشع في صلاتك تضرعًا ولا تكف عن المحاولة أبدًا.

اليوم تمر مائة عام على فلسطين

ثلاثون عام على العراق

ثلاثون عام على سوريا

ثلاثون عام على ليبيا

وثلاثون أيضًا على اليمن

اليوم تمر مائة عام على القتل والتشريد والاغتصاب.. مائة عام على الفتك بأطفالنا ومستقبلنا العربي إما بالنووي أو الكيماوي الذين يتباهون

بتصنيعه بينما يحرم علينا مجرد التفكير في شرائه ثم يدعون بعدها رغبتهم في تحقيق السلام العالمي!

مائة عام من الخزي والذل والعار يلحق بنا... مائة عام تطمس فيها هويتنا العربية وتداس فيها بالأقدام ولا نستطيع أن نفعل شيئًا!

بتلك الكلمات أنهى محاضرته الأسبوعية لقد أقسم منذ أن تولى منصبه كأستاذ جامعي أن يذكر تلاميذه بها حتى لا يشارك في إخراج جيل آخر من أشباه الرجال ومعدومي النخوة ومتهالكي الروح فربما يخرج منهم من يستطيع أن يحرر تلك الأمة من هذا الغزو الصليبي الذي أصابها.

إنه يعلم مقدمًا عواقب ما قاله، تحذير غير مباشر من عميد الجامعة مع اتهامه بمعاداة السامية.

ومحاولة تهييج الطلبة ضد نظام يعلم الجميع جيدًا أنه تجاوز مرحلة الفساد ولكن ربما سئم الطلبة أنفسهم منه ومما يقوله وإن كانت كلماته لها صدًى في بعض النفوس فهي نفوس خاوية ضالة طريقها ربما تخرج في مظاهرات وتهتف صراخًا في دعوات مفتوحة بفتح باب الجهاد ولا يحدثون أثرًا يذكر سوى قطع طريق أو تخريب بعض المنشآت وهذا ما لا يريده فتلك الأفعال تقدم قدمًا وتؤخر أخرى أن أفضل ما فعله هؤلاء الشباب يومًا هو حرقهم مبنى البرلمان عام 2028 اعتراضًا منهم على تلك الأشياء التي كانت تسكن به وعلى ما يخرج منها؛ ثم قيامهم في العام الذي يليه بثورة على

الحاكم ومن معه اعتراضًا على سياساتهم وأنظمتهم في إدارة شئون البلاد بعدما ازدادت البطالة ونسب الفقر والجوع ومديونية الدولة واقتراضها من الخارج بعدما قتل ما يقرب من خمسة آلاف شخص في يوم واحد تصارعوا فيما بينهم لعدم وجود أي أطعمة في الأسواق والجمعيات الاستهلاكية والتي عرفت فيما بعد بثورة الجياع حتى رحل النظام وأتى من هو أسوأ منه!!!

خرج من المدرج تصاحبه دعوات بعض الطلبة التي ارتفعت في غضب

- غور يا شيخ

- هي ناقصاك

- الله يخرب بيتك جبت لنا ورم في دماغنا

- انت إيه يا أخي ما بتزهقش

- إلاهي تنشك في معاميعك معموع معموع

كان يعلم ما يقولونه حتى من قبل أن ينطقون به لمثل هؤلاء خلق الجحيم إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا ماذا يعلمون عنه حتى يرافقونه بلعناتهم ومحاولتهم المستميتة في التقليل من شأنه وتحقيره، إنه ليس بحاجة لهم ولا لآرائهم فليحتفظ كلٌّ منهم برأيه لنفسه أو يضعه في مؤخرته إن شاء.. يكفيه أنه أصبح ما هو عليه بفضل مجهوده وعرقه ولم يطلب وساطة أو مساعدة من أحد.

لقد تحمل من العذاب في حياته البائسة أكثر مما تحمل يعقوب

ولد جلال الدين الرفاعي فقيرًا في مدينة الرِّق يناير 1998 ماتت أمه بعد فطامه ثم تزوج أبوه السكير من امرأة استحوذ عليها الشيطان وتملك من روحها بل هي الشيطان نفسه!

فقد كانت تعذبه هو وأخيه تكويهما بالنار وتحرق جسديهما وتغلق عليهم باب حجرتهما بالليالي بدون أي طعام وإن رق قلبها إن كان لديها واحد مثل الجميع تلقي لهما بالخبز الفارغ وبعض الماء يبقيهما على قيد الحياة وعندما تجاوز الثامنة أرسلته ليعمل عند حدادٍ ينفخ في النار ويضرب على الحديد ويتقاضى خمسة جنيهات يوميًّا يأخذهم من يد صاحب العمل ليضعهم في يدها وقد أرسلت أخيه هو الآخر إلى إحدى ورش السيارات ليلاقي ما يلاقيه وكان حينها أكبر منه بعامين هذه هي طفولتهما؛ ولم يكد يتجاوز أخيه عامه السابع عشر حتى أخذهما والدهما من يدهما وألقى بهما في الشارع بعدما ألمحت له زوجته بأنها تعاني من نظرات في غير موضعها راجية منه ألا يقرب البنزين من النار خوفًا منها ألا تقيم حدود الله وخاصة أنها لم تتجاوز الثلاثين بعد..

تشردا في الشوارع، ناما على الأرصفة، تضورا جوعًا وبردًا كان يأكل من القمامة ويستر عورته بخرقة بالية لم يَشْكُ... لم يصرخ.. لم يلعن حظه يومًا.. لم يرفع يده للسماء ويسأل الله عن حكمته في هذا؟ أتى عليه زمن وذهب قبل أن يجد أخيه عمل ثم ما لبث أن لحق هو به.

سار في الحياة كثيرًا بلا هدف ولا أمل يتخبطه قدره كما يشاء كان يسمع أخيه يبكي بحرقة أثناء نومه ولا يستطيع أن يفعل شيئًا كان يقف صامتًا مرتجفًا عاجزًا أمام آلامه ومعاناته هو وأخيه ومع كل هذا لم يطلب يومًا عطف أو ذرة شفقة من أحد بل عكس ما كان يحدث تمامًا نظرته لجميع من حوله كانت تحمل الكثير والكثير من الرثاء لهم!

انتشله من ماضيه أحد زملائه من أساتذة الجامعة والذي لم يلقِ سلامًا بل اكتفى بتحذيره قائلًا:

- إيه يا جلال مش قُلنا هنهدي اللعب شوية عاجبك كدا أهو شوية عيال لسَّا بيعملوا حمام على روحهم وياخدوا المصروف من أبوهم راحوا عند العميد يشتكوك.

وكأنه يتوقع ما حدث أردف متسائلًا

- شكوتهم إيه المرة دي؟

- بيقولوا إنك بتحرضهم على النظام عشان ما حدش يشترك في الحرب صارخًا

- حرب إيه وزفت إيه؟! صحيح الغباء جند من جنود الله دي مش حرب يا عصام دي بلطجة واحنا مجرد سلاح في إيد بلطجي غشيم مش شايف قدامه غير مصلحته إحنا مالنا إحنا ومال إيران، أمريكا عايز تخبط فيها وخايفين على جنودهم فيعملوا إيه ييجوا عند شوية العساكر الغلابة

بتوعنا ويضحوا بيهم زي الدبيحة في المدبح، ليه ندخل خناقة مش بتاعتنا ولا احنا طرف فيها؟ يا أخي ملعون أبو المعونة إلى بيذلونا بيها وبندفع تمنها من أرواحنا وكرامتنا دم عيالنا مالوش تمن ومش ببلاش هما عارفين كبيرنا يشغولنا الاسطوانة بتاعت السنة والشيعة واتحزمي يا دولتنا وارقصي على جثث عيالك.

- أنا معاك في اللي بتقوله بس على إيدك أهو العيال غباوتها تتوزن بالكيلو واحنا مش هينوبنا حاجة غير الإنذارات وبعدها الرفد وهنبقى في الشارع ونجوع إحنا واللي ورانا.. يا عم سيبهم يغوروا في داهية عايزين يحاربوا ويغرقونا دم وكل واحد فرحان لي بنفسه خليهم لما إيران تنفخهم ويرجعوا يعيطوا هيعرفوا ساعتها إن الله حق.

- طيب ابني وابنك والعيال دي مش ليهم أهل، أب زيك وزيي هيموتوا عليهم وعايزين يمنعوهم، بس الحكومة غسلت مخهم خلاص، ازاي يوصل بينا الحال نقتل في بعض كمسلمين وإسرائيل عايشة وسطينا في سلام.. إيران ما اعتدتش علينا عشان نعتدي عليها والقرآن واضح "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا" وبعدين إحنا فين وإيران فين إيه اللي جاب نملة للفيل دي ناس سابقينا نووي وعلم لو قعدنا 100 سنة كمان مش هنوصلهم اللي هيحصل دا مش حرب دا انتحار واحنا اللي هندفع التمن من عيالنا ودمهم وحرقة قلوبنا عليهم.

تركه جلال وهو يبتعد منفعلًا كان يعلم أن زميله مثله تمامًا كارهًا لأمريكا تلك الأفعى السامة التي تبخ سمومها بين العرب منذ أن وجدت وحتى الآن ويساعدها على هذا غباء حكامهم المعهود منذ بدء الخليقة ولكنه أيضًا لا يحب إيران التي لا تقل غباءً عنهم فلم تستطِع إخفاء حقدها وكراهيتها للمسلمين السنة ولم تترك مناسبة صغيرة كانت أو كبيرة إلا واستغلتها في السب والتجريح في الصحابة وآل البيت والتعدي على مقدساتهم ومحرماتهم والسخرية من الأضرحة وزيارتها بل وصل بهم الحال إلى سب بعض زوجات النبي أيضًا ونجحوا بأفعالهم تلك في إحداث فجوة بينهم وبين السنة من المسلمين وظلت تتسع تلك الفجوة حتى جاء عليهم الزمن ليتقاتلوا فيما بينهم كمسلمين بينما يعيش الصهاينة والملحدين بينهم في سلام!!!

لا يوجد سبب واحد للحرب سوى الغباء السياسي والإنساني ومع ذلك فقد أعلنت الحرب ورفعت مصر درجة الاستعداد القصوى وبدأت في التعبئة حتى أنها سمحت بالتطوع لمن يرغب ولن تمر سوى أيام قليلة ويستدعون ابنه إلى التجنيد ابنه الذي لم يكمل عامه الواحد والعشرين ولم يشبع من الحياة بعد.. لم يرَ زوجة أو أبناء ولا مستقبل أيضًا ولكنه سيرى دماء وجثث تتطاير وأشلاء.. أرواح غاضبة تطالبه بإعادتها للحياة مرة أخرى أو أن يلحق هو بهم ليذق ما مروا به ويلاقي نفس مصيرهم سيعطونه سلاحًا ويأمرونه بالقتل وسينفذ ما يأمرونه به سيقتل أناسًا لا يعرفهم من لحم

ودم مثله.. أبرياء مثله.. لم يشبعوا من الحياة مثله.. سيتيتم طفلٌ.. وترمل امرأة ويبكي أبٌ بحرقة ويدمى قلب أم حسرة على ولدها.. سيقتل من هم في مثل سنه وهو لا يعلم إن كانوا يستحقون القتل أم لا؟!

سيسفك الدماء ولن يصبح بعدها خليفة الله على الأرض!

وربما ارتعشت يده وهو يصوب سلاحه ويتراجع في خضم المعركة فيراه شخص آخر لا يعلم مثله ما يفعله في هذا المكان ولم يتوجب عليه قتل من ليس منهم فيرديه قتيلًا

اللعنة على الحروب والحكومات.. اللعنة على ابنه أيضًا ومن هم في مثل عمره الذين يسمحون لهم بالتلاعب بعقولهم وتحريك ضمائرهم إلى طريق مظلم لا يوجد في نهايته أي شيء سوى الظلام والدم.

يا الله أين أنت؟.. أنقذهم يا الله.. أنقذهم من أنفسهم لا من عدوهم.. أنقذ عبادك يا الله.. أنقذهم.

خرج من الجامعة ساخطًا تصاحبه نظرات الطلبة الهازئة بل أن بعضهم يدير رأسه عنه وهو يستعيذ بالله كأنه رأى شيطانًا لو يعلمون أنه يموت كمدًا من أجلهم لما عاملوه هكذا.

دخل شقته مطمئنًا بعض الشيء بعدما توصل تفكيره لطريقة ستعفي ابنه من الذهاب للحرب سيقوم بإرساله إلى أحد أصدقائه القدماء والذي يعمل كأستاذ جامعي في الإمارات سيجد طريقة لتهريبه ويستطيع أن يدبر المال

الكافي لهذا ولتذهب الحرب ومن يدعون إليها إلى الجحيم وبذلك يحفظ ابنه من أن تهدر دماؤه أو دماء سيكون هو نفسه سببًا في إهدارها.

لمحه وهو يمر بكرسيه المتحرك من أمام باب غرفته، اقترب منه يلقي سلامًا لم يقابله رد.

متجهم الوجه كعادته.. حزين القسمات يسبح بيده وبين شفتيه أسماء الله الحسنى ينظر للسماء مناجيًا لم يعد يعرفه شخصًا غريبًا عنه جاء من العراق غير أخيه الذي سافر إليها زادت غرابته وانعزاله عن الجميع بعدما تركته زوجته في مساء إحدى الليالي ولم تعد أصيب بشلل بعدها بشهور لم يعد يتحرك فيه سوى لسانه للذكر والتسبيح وعينيه للرؤية وأحيانًا تصيبه نظرات ساخطة منه أما عقله فلم يعد يعمل على ما يبدو... مضى على إصابته بالشلل خمسة عشر عامًا وهو جالس على مقعده المتحرك حتى انضم إلى قطع الأثاث بالشقة..

أصبح يتميز بقلة الكلام ولا يتحدث سوى بكلام مبهم وكلمات بسيطة تفرض نفسها على لسانه وإن كان أحيانًا وفي فترات متباعدة يقع في حالة عصبية يطلق فيها لسانه بكلام كثير عن الحرب في العراق وأشلاء الجثث التي كانت تمر السيارة من فوقها وابنته التي اعتدوا عليها أمامه ثم ما لبثوا أن قتلوها وزوجة صديقه التي بقروا بطنها وأخرجوا الجنين الذي بداخلها وخنقوه ثم

أضرموا النار في الحي ومن فيه ثم يدخل بعدها في حالة هياج تدفعه للصراخ ثم ما يلبث أن يهدأ وينظر للسماء مناجيًا مرة أخرى.

* * *

كانت فكرة السفر إلى الحرب قد بدأت تتغلغل في نفسه رفض عرض والده بالهرب إلى الإمارات والعيش بها لن يذهب ليعيش كالفئران في جحور بلد أخرى يتسول ويطلب الإحسان، يتزوج امرأة غريبة عنه ليضمن الجنسية ثم ينجب أبناءً يفنون أعمارهم من أجل وطن غير وطنه ثم يموت ويشحن في صندوق كالقمامة ليعود ويدفن في بلده... لماذا يفعل والده هذا؟! لم لا يحثه على الذهاب مثل باقي الأباء؟! لم لا يشجعه ولو بكلمة؟! ماذا يفعل في ذلك الصراع القائم بين أبيه وكل ما له صلة بالدين حتى عمه لم يسلم منه عندما يحتد النقاش بينهما يتقاذف كلٌّ منهما السباب فعمه يرى أبيه كافرًا وعلمانيًّا وأبيه ينعته بالجنون والغباء والدروشة تذكر جده من والدته لقد مات في حرب الخليج الثانية تحت راية فئتين من المسلمين يتقاتلا أنه يأمل أن يلقى نفس مصيره ولكن....

ماذا لو كان أبيه على حق؟ وأن تلك الحرب هي فعلًا صنيعة أمريكا مثلما فعلت من قبل مع العراق في أوائل تسعينات القرن الماضي فأمريكا وقتها كانت تخشى خطورة التقدم العلمي والحربي للعراق عقب الثورة العراقية الإيرانية وكانت ترى أن العراق تشكل خطرًا كبيرًا على إسرائيل وعليها هي

شخصيًا مثلما تشكل إيران خطرًا عليها الآن ولذلك قامت بإشعال فتيل الفتنة وتحريضها على الحرب مع الكويت واستغلت في ذلك معاناة العراق الاقتصادية والتي رفضت حينها أن تلتزم في تسديد ديونها للكويت عندما دعمتها اقتصاديًا في حربها مع إيران حيث وصلت حجم المساعدات الكويتية للعراق أثناء الحرب ما يقارب 14 مليار دولار وكان العراق يأمل بدفع هذه الديون عن طريق رفع أسعار النفط بواسطة تقليل نسبة إنتاج منظمة أوبك للنفط ولكن إحصائيات الدول المصدرة للنفط أثبتت أن هناك 10 دول من ضمنهم العراق لم تكن ملتزمة بحصص الأنتاج.

وبدأت الأحداث تأخذ منحنى تصعيديًا من قبل النظام العراقي حيث بدأ العراق بتوجيه اتهامات للكويت بأنها قامت بأعمال تنقيب غير مرخصة عن النفط في الجانب العراقي من حقلٍ نفطي مشترك وقد قام وقتها صدام بإضفاء طابع ديني على الحرب لإشعال النفوس مثلما يفعل رئيسهم الآن!!

دخل أبوه يجر ساقيه خلفه كأنه يجر عبئًا لم يعد يقوى على حمله تعلو وجهه نظرات الحسرة والألم عليه.. إنه يعلم أن أباه يموت كمدًا من أجله منذ أن أخبره برفضه الهرب من البلد وعزمه على الذهاب إلى الحرب تضاعف عمره وانحنى ظهره وشاب شعره وهرم فجأة نظر كل منهما إلى الآخر نظرة حسرة واستسلام هز والده كتفيه كأنه ينفض عنهما ألم الدهر تقدم منه في خطًى متثاقلة مادًّا يدًا مرتعشة تحمل أحد الأوراق قائلًا:

- باقتضاب: جواب الاستدعاء.

لم يناقشه أو يجادله أو يحاول أن يثنيه عن قراره أو يساعده في إسكات ذلك الصراخ النفسي الحاد بداخله فقط أعطاه الورقة وخرج يجر وراءه أزيال خيبته في ابنه الوحيد والذي على حد وصفه يراه متعطشًا للدماء لو يعلم والده ما يدور في نفسه الممزقة الحائرة بين الذهاب أو الهروب لالتمس له ألف عذر، تدارك نفسه مؤكدًا محاولًا طمئنتها لا إنه رجل سيذهب ويقاتل ويدافع عن دينه لن يسمح لأحد أيًّا كان بوصفه بالجبان المتخاذل اقترب من النافذة ناظرًا للسماء محدثًا الله في نفسه:

- يا الله إن لم أكن أهلًا للوصول لحكمتك فحكمتك أهل لأن تشملني اللهم ألهمني السكينة والشجاعة لأستطيع تغيير الأشياء التي تحاربنا في الدين؛ اللهم إن تتركهم سيضلون عبادك ويقتلونهم، دافع يا الله عنا دافع عن الذين آمنوا.. جاءه ذلك الصوت الآخر بداخله متسائلًا:

- أحقًّا تؤمن بما تقول وتدعو الله أن يدافع عنكم أنتم الفئة التي تبغي، إن الشيعة ربما أخطأوا ولكنه خطأ يستوجب النصيحة واللوم لا القتل وإهدار الدماء.

عادت إليه نفسه مؤكدة ولكنهم يقتلوننا أيضًا ويكفروننا ويفضلون معاشرة اليهود على معاشرتنا نحن فئة المسلمين؛ جاءه الصوت الآخر ساخرًا:

- وأنتم يا معشر المسلمين السنة الذين يدعون فهمهم لصحيح الدين ستضعون أيديكم في يد من هم مثل اليهود وتحاربون أبناء دينكم وأمتكم وتساعدوهم على قتل أطفالهم واستباحة نسائهم ثم تكذبون بادعائكم أن من يقتل منكم فهو شهيد، لا والله بل من يقتل منكم فهو قاتل آثم جزاؤه جهنم فأي دين هذا الذي تنتمون إليه؟

- اسكت.. اسكت بالله عليك

جاءه الصوت مرة أخرى صارخًا "قاتل.. متعطش للدماء.. مجرم.. قاتل قاتل"

صرخ وهو يضع يده فوق أذنه محاولًا إسكات ذلك الصوت الحاد الباتر لكل ما يؤمن به أو ما يعتقد هذا

- اسكت.. اسكت.

- روح يا ابني.

كان هذا عمه الذي ظهر خلفه فجأة وهو يتطلع إليه بأسًى نظر له مستغربًا وسأله باستفهام

- انت قُلت حاجة يا عمي؟

مؤكدًا

- باقول لك روح يا ابني

- أروح فين؟

- روح الحرب واوعى تسمع كلام أبوك مش دا اللي انت عايزه.. حد يقول لك إنك صح وأن القرار اللي خدته قرار سليم أهو أنا باقول لك اللي عايز تسمعه روح الحرب وانت صح.

- بتردد: بس دول مسلمين.

- ولا يعرفوا حاجة عن الإسلام صدقني الشيعة زي اليهود بالظبط كل واحد بيتعامل معاك على إنك سرطان لازم يستأصله عشان يعرف يعيش لوحده في العالم.

اقترب منه بالكرسي المتحرك ممسكًا بأحد الصور وضعها في يده صامتًا وعيناه تتحدث بألف كلمة نظر للصورة كانت لفتاة لا تتجاوز الخامسة عشر من عمرها جميلة.. رقيقة.. شعرها ذهبي طويل ينسدل في حرية على كتفيها يحيط بوجه وردي وعينين فيروزيتين تبتسم في براءة وهي محتضنة عمه.

- دي نور بنتي اخترت لها الاسم دا لأنها كانت نور فعلًا جات الدنيا في وقت كانت حياتي فيه نفق كله ضلمة كنت عامل زي الغريق اللي متكتف بـ 100حبل وما بيعرفش يعوم والقدر رماه في نص البحر وبينه وبين الموت خطوات وفجأة ظهر نور من بعيد وسفينة نجاة وفرحة بسببها ضحكتي ما كنتش بتفارقني كانت بنتي وحبيبتي وصاحبتي وأمي وأختي وكل حاجة ليَّ في الدنيا دي.. شفتها وهي بتكبر قدامي يوم بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة

حتى لما عرفت إن مراتي مش هتخلف تاني بسبب ورم خبيث جالها في الرحم ما زعلتش والله ما زعلت وكنت راضي وحامد وشاكر ربنا على نعمه وفضله.

صمت لحظة محاولًا استرجاع ذكرى لم تمت بداخله ثم أكمل حديثه متألمًا

- لغاية اليوم المشؤوم كنت عارف إن فيه حاجة هتحصل في اليوم دا لمحت غراب بينوح كان واقف على شباك أوضتها حاولت أضربه كذا مرة بس كان بيرجع عرفت ساعتها إن فيه حاجة شر هتحصل وفعلًا ليلتها الشيعة هاجموا المنطقة بأسلحة ورشاشات كانوا بيقتلوا فينا بدم بارد أي حد يقابلوه ما يلحقش ينطق الشهادة...الشوارع أتملت جثث والدم غرق الأرض أفتكر يومها فيه ناس كفرت وقالت أن ربنا لو كان موجود فعلًا كان منع اللي بيحصل

صمت مرة أخرى ثم قال بمرارة

- وأنا كنت واحد منهم

نظر له ابن أخيه مصعوقًا وأردف متسائلًا

- كفرت؟

- كل إنسان بييجي عليه وقت بيكفر حتى لو بينه وبين نفسه، لو كنت شفت اللي أنا شفته ما كنتش هتستغرب كتير ولا تلومني، ليلتها دخلوا علينا أنا ومراتي وبنتي مراتي اترجيتهم انهم يسيبوا البنت ولو عايزين حاجة ياخدوها منها تخيل إني كنت موافق في لحظة زي دي عقلك بيتشل وأي تفكير في

المنطق والمفروض واللي ما يصحش والعيب بيبقى مستحيل.. بصوا لبنتي بصة عمري ما هانساها خدوها من حضني وضربوا مراتي لغاية ما أغمى عليها واحد فيهم كان عايز يغمي عينيَّ بس التاني منعه وقاله لا خليه يتفرج، اغتصبوها قدامي وبعد كدا خنقوها وقتلوها قتلوا بنتي وطفوا نور عيني اللي كنت باشوف بيه وكل حاجة حلوة في حياتي وفي الآخر جاي تقول لي مسلمين؟! انت ما تعرفش حاجة ولا شفت حاجة روح الحرب يا ابني روح واضرب بإيد من حديد واوعى تاخدك بيهم ذرة عطف أو شفقة أنا هاسيب الصورة دي معاك عشان لو ضعفت تقويك وعشان لو نسيت تفكرك إن لك تار عندهم.

هَمَّ أن يخرج من الغرفة ولكنه استوقفه

- عمي

التفت له بكرسيه المتحرك ناظرًا له بعين تدمع وقلب يدمي دمًا بعدما أحيا حديثهما كل ما حاول أن يدفنه منذ سنوات

- انت قُلت انك كفرت ازاي قدرت ترجع تاني؟

ابتسم نصف ابتسامة ماتت على شفتيه قبل أن تكتمل وسأله بغتة

- تعرف الحلاج؟

- لأ

- دا كان شاعر وفقيه في الدين وشيخ مشايخ الصوفية ناس كتير اتهمته بالزندقة والإلحاد الناس لما اتهمته بالكفر كان سهل عليه إن هو كمان يكفرهم وكان ساعتها له أتباع كتير وناس بتأيده وتمشي على خطاه وكانوا هيصدقوه في أي كلمة هيقولها لكنه سكت، فضل ساكت عن أذاهم لغاية ما واحد سأله في يوم من الأيام عن حقيقة إيمانه من عدمه فرد عليه وقال له "يا بني إن بعض الناس يشهدون علي بالكفر وبعضهم يشهدون لي بالولاية؛ والذين يشهدون علي بالكفر أحب إليَّ وإلى الله من الذين يقرون لي بالولاية لإن الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي والذين يشهدون لي بالكفر تعصبًا لدينهم" بعدها لما سمع أنهم أهدروا دمه كتب بيت الشعر دا وقال فيه

إن الحبيب الذي يرضيه سفك دمي
دمي حلال له في الحل والحرم
إن كان سفك دمي أقصى مرادكم
فلا عدت نظرة منكم بسفك دمي
والله؛ لو علمت روحي بمن علقت
قامت على رأسها فضلًا عن القدم
يا لائمي لا تلمني في هواه، فلو
عانيت منه الذي عانيت لم تلم

- مش كل ظواهر الأمور زي بواطنها يمكن نور بنتي كانت نور عيني وحياتي اللي انطفا لكن نور ربنا في القلب عمره ما ينطفي ونور القلب هو نور من الله وما دام قلبك ما ضلمش يبقى ربنا لسَّا جواك حتى لو بعدت عنه شوية فهمت إيه اللي رجعني له تاني ساعات كتير كنت باحس إني ما بعدتش أصلًا بس يمكن كنت واخد على خاطري منه شوية عشان نور؛ عارف لو كانت ماتت بطريقة تانية كنت هابقى راضي وصابر لكنها اتعذبت كتير وانا كنت واقف باتفرج بس برضه أنا غصب عني أنا كنت.....

خرج من الغرفة وهو يحدث نفسه عادت له حالة الهذيان مرة أخرى نظر له ابن أخيه بحسرة ويأس

* * *

قبل الحرب بيوم

كان النوم حلمًا مستحيلًا في هذه الليلة الأفكار موزعة ومشتتة في كل اتجاه وبين الحلم واليقظة استطاع أن يسرق دقائق معدودة من النوم حتى أتى الفجر كالزائر خفيف الظل.

انتظر نزولها بفارغ الصبر ثم ظهرت ومن خلفها أخيها ذلك الشيطان الصغير لابد أن يحدثها تلك المرة هل انتظرها ساعتان ليعود كما جاء فارغ الأيدي.. اللعنة على النساء فهم كالسجائر ممتعة ولكنها تؤدي للوفاة!!

ربما تكون تلك المرة الأخيرة التي يراها فيها، سار خلفها في خطوات ثابتة لم تمضِ عشر دقائق حتى دلفت إلى أحد المباني لم تغب كثيرًا مرت لحظات قبل أن تخرج من المبنى ولكن وحدها تلك المرة ألقت عليه نظرة خاطفة ثم أكملت سيرها كانت تعلم أنه يتبعها ليس اليوم فقط مر عليه شهران منذ أن رآها لأول مرة في محطة القطار وكان قدرها أن تجلس بجانبه طوال رحلتهما من بور سعيد وحتى القاهرة ثم ما لبث أن ساعدها في حمل الحقائب حاول أن يحادثها كثيرًا ولكنها كانت تصده وتغلق جميع أبوابها في وجهه حفظًا لقلبها الذي تم استهلاكه سابقًا على يد من لا يستحق.

اقترب منها هامسًا

- ممكن تقفي لحظة

لم تجب وتابعت سيرها، عاود إلحاحه

- أرجوكِ تقفي يمكن تكون دي آخر مرة تشوفيني فيها أنا بكرة في الفجر هاكون على الحدود باحارب مع الجيش ويا عالم هارجع تاني ولا لأ فأرجوكِ اسمعيني.

توقفت عن السير والتفت له ناظرة إلى عينيه مباشرة

- نعم

- باحبك

- يعني إيه؟؟

- مش فاهم

- يعني إيه بتحبني أنا سمعت الكلمة دي قبل كدا ولما سبت روحي وصدقتها ومشيت وراها كانت النتيجة أن روحي انكسرت وقلبي نشف.. عشان كدا باسألك يعني إيه بتحبني؟

حدثته نفسه

"انطق يا غبي دي فرصتك الأخيرة.. انطق"

سحب نفسًا عميقًا ربما ليتمالك به أعصابه بعدما أوجعته كلماتها

- باحبك يعني كلمة ما تقالتش لحد قبلك ولو ربنا كتب لي عمر جديد بعد الحرب أوعدك مش هتتقال لحد بعدك؛ باحبك يعني بقالي شهرين لا مش شهرين من قبل كدا كمان إحنا نعرف بعض من زمان لدرجة إني لما شفتك ما كنتش مصدق إنك حقيقية؛ باحبك يعني بقيت خايف على حياتي أكتر

من الأول عشان انتِ موجودة فيها خايف أموت وما اشوفكيش تاني؛ باحبك يعني تكوني الماضي اللي باكرهه عشان ما قابلتكيش فيه والحاضر اللي نفسي أعيشه وانتِ معايا؛ باحبك يعني باحبك من غير زمن ولا مكان ولا ناس عشان العالم بتاعنا مش هيبقى فيه غيري أنا وانتِ وبس.

اهتزت قدماها في توتر قبل أن ترتعش شفتيها ساخرة منه

- حلو.. طيب ما انت حافظ كويس أهو

أعطته ظهرها مبتعدة، استوقفها متسائلًا بلهجة آمرة

- رايحة فين أنا مش بتكلمك

- سمعت الكلام دا قبل كدا.. مجرد كلام

- إيه اللي يثبت لك إنه مجرد كلام؟

- وإيه اللي يثبت لي العكس؟

- .....

- ما تروحش

- ما اروحش فين؟؟

- ما تروحش الحرب

- غريبة

- إيه الغريب في كدا؟

- كنت فاكرك هتبقى فخورة بيَّ وتفرحي

- أفرح.. أفرح بيك وبأخويا وبكل واحد هيروح الحرب على رجليه ويرجع للبلد مشحون في صندوق والبلد تتحول بدل ما تبقى مكان نعيش فيه تبقى مقبرة يدفنوك انت وغيرك فيها

- انتِ مش فاهمة حاجة

- فهمني

- كل اللي هيروحوا الحرب أبطال بيدافعوا عن دينهم وشرف أمتهم، اسمعي علماء الدين وانتِ تعرفي إنها مش حرب دا جهاد.

- اسمع انت العلماء والخبراء السياسيين والناس اللي بتفهم وانت تعرف إنها مش حرب دي مجزرة وانتم مجرد سكينة تلمة في إيد جزار غشيم ونظام غبي بيعتبركم أرخص حاجة عنده، الحرب دي مش بتاعتنا.

- عارفة الشيعة بيعملوا فينا إيه؟! دول ألعن من اليهود.

- عارفة.. وعارفة كمان إنك لو رُحت الحرب دي مش هترجع نفس الإنسان اللي أنا شايفاه دلوقتي قلبك هيموت وإيديك هتبقى غرقانة بالدم.. أرجوك بلاش تروح إحنا ما عندناش مشكلة مع إيران ولا مع الشيعة ولا اعتدوا علينا كدولة.

- لا عندنا مشكلة ومش أي مشكلة دا دم وتار وحرمة دين لازم نحافظ عليه عايزة تعرفي المشكلة؟ مين اللي ضيع العراق وسوريا ولبنان واليمن وعايز يضيع الباقي ويعيش يبرطع لوحده في الكون؟ جاوبيني

- ومين اللي ضيع فلسطين الشيعة برضه؟! ولا غباوتنا إحنا كعرب؟ وكل واحد عمال ياكل في التاني.. لو رُحت الحرب دي انساني نهائيًّا.

- هاروح الحرب بس مش هانساكِ ولو ما رجعتش علمي ولادك إن احنا جيل حاول يعمل ولو حاجة واحدة بس صح في حياته.

تركها مبتعدًا قبل أن تقتل آخر ذرة دفاع بداخله تجاهها

* * *

قبل الفجر

خيم ضباب الحرب على ساحات القتال، اشترك الجيش فيها بما يقرب من ثمانية عشر ألف جندي إلى جانب جيوش التحالفات العسكرية لم يتم إرسال أي تعزيزات فقط أربعة عشر كتائب من قوات التحالف والآلاف من الجيوش العربية.

لماذا لم تلقِ أمريكا إحدى قنابلها النووية على إيران وتنهي صراعها بمفردها؟.. لماذا لم تستخدم أسلحتها وجنودها؟.. فقط أعلنت الحرب وجمعت الجيوش العربية التي لم تكن لتجتمع أبدًا لوحدها تلك الجيوش التي اتفقت على مدى التاريخ الأسود على ألا تتفق، اتفقت الآن وعلى ماذا؟.. على ضرب أحد الدول المسلمة!!

ولعل إيران تستحق ما يحدث لها بل وأكثر؛.. ولكن لماذا على أيديهم هم؟.. لماذا يجب عليهم أن يكونوا هم العصا التي يضرب بها الشيطان الأعظم من يخطئ؟

هي تعلم جيدًا أنها عصا مهزوزة لن تفعل شيئًا وستكسر قبل أن يهوي بها صاحبها على رأس من تريد؛ استحضر كلماتها "سكينة تلمة في إيد جزار غشيم" اللعنة عليها إن كانت على حق.

نظر حوله للمرة المليون ليتأكد مما يراه هناك العشرات مثله ممن يصوبون أسلحتهم ثم يخفضونها مرة أخرى تطلع إليهم ليرى نظرات خائفة.. متسائلة.. متراجعة.. وربما نادمة على المجيء.

لقد قام أحد الضباط منذ قليل بالتصفية الجسدية لجندي ألقى سلاحه وهو ينتفض ويصرخ مرعوبًا

- مش عايز أحارب.. مش عايز أموت

قتله بدم بارد لم يلتفت لصغر سنه أو ضعفه؛ لم يرأف به أو برجائه لم تأخذه ذرة رحمة به ولم يحاول أن يطمئنه حتى بكلمة؛ فقط ضغط على زناد مسدسه لتستقر ثلاث رصاصات داخل جسد المجند.

نظر بعدها للجنود بلا مبالاة معللًا ذلك بأنه ليس هناك وقت للتراجع والخذلان وأن ال 6 رصاصات التي بداخل مسدسك لابد أن يكون واحدة منها لعدوك وخمسة للخائن وأن انسحابه من أرض المعركة وقت الحرب هو أكبر خيانة لهم وللوطن!! "دي مش حرب دي مجزرة" عاد صوتها يشق طريقه إلى أذنيه مرة أخرى.. اللعنة عليها للمرة الثانية عندما تكون على حق وعندما رأت هي ما لم يراه هو فقد اتضحت الصورة أمامه الآن إنها بالفعل ليست حربًا بل مذبحة يتقاتل فيها أبناء الدين الواحد، السماء تمطر رصاصًا من حوله مئات الجثث تتساقط والدماء تغرق الأرض ولابد أن

أمريكا وزبانيتها يخرجون ألسنتهم الآن للعرب ساخرين منهم ومن هذا الغباء المستحكم والمتوارث.

لم يطلق رصاصة واحدة من مدفعه حتى الآن.. ساقه لم تكف عن الارتجاف.. دموعه خانته وسقطت عندما رأى شلالًا من الدماء ينفجر من رقبة أحد أصدقائه إثر إصابته بطلقة تعرف طريقها جيدًا تجاه رأسه؛ لم يقترب منه أو يحاول مساعدته نظر له صامتًا، ماتت الكلمات على لسانه ورفض جسده الحركة عندما سقط صديقه على الأرض جثة هامدة قبل أن تتراقص على شفتيه ابتسامة قاتلة وهو يتمتم بكلمة "اهرب."

لم يكد يلتفت حتى وجد أمامه أحد الجنود الإيرانيين الدماء تغطي زيه العسكري يرتجف من أعلى رأسه لأخمص قدميه سلاحه ملقًى بجانبه فارغًا أشار له راجيًا

- لا تقتلني يا أخي بالله عليك أنا عربي مثلك

لم يقع في نفسه تأثير لكلمة "عربي مثلك" مثلما رأى نفسه في تلك النظرة التي يواجهها الآن إنه يعرفها جيدًا نظرة خائفة.. متوسلة.. تتساءل في حزن ما الذي أتى بي إلى هنا وجعلنا نتقاتل؟؟

لم يعد يسمع أو يرى شيئًا، توقف حديثه النفسي بداخله فقط أخفض سلاحه متمتمًا له "اهرب"

استوقفته تلك التكة التي تصدر من سلاح معلنًا عن تأهبه لإطلاق المزيد من الرصاص وإسقاط المزيد من الجثث نظر خلفه ليرى جنديان من قوات التحالف ينظران لهما بحقد وتحفز ثم ما لبثت أن تحولت نظراتهما لاستغراب وعدم تصديق عندما انطلقت رصاصة لتستقر داخل صدره وعلى بعد سنتيمترات من قلبه قبل أن يركع على قدميه ألقى نظرة أخيرة خلفه ليرى من أطلقها لم تخرج من أي سلاح سوى سلاح ذلك العربي الذي تركه حيًّا منذ قليل!!!

بيد تزغد في كتفه وصوت شفيق جلال صارخًا: الميه يا بهايم وصوت يناديه

- يحيى..... يحيى

أجاب وهو نصف نائمٍ

- حاضر يا حسين هاجيب لك واحدة تانية بس سيبني انام

- يا يحيى فووووق بقالي ساعة باصحي فيك

فتح عينه ليتفاجأ بنفس الميكروباص؛ زوجته وهي تلح عليه في سؤالها

- باقول لك عملت إيه في الجنازة امبارح وجيت إمتى؟

بعدم تصديق نظر حوله ليجد نفسه نائمًا على كنبة الصالة التي كان يجلس عليها بالأمس؛ نهض من مكانه يبحث في أرجاء الشقة عن حسين لم يجده فقط اصطدم بزوجته التي كانت تلحق به متسائلة في فضول

- باقول لك عملت إيه في جنازة حسين؟

بوعي وانكسار أجابها بحزن

- دفناه... مات، ليه ما سبتنيش نايم يا ريتني ما صحيت؟ يا ريتني ما صحيت ثم تركها وعاد لنومه مرة أخرى.

تمت

شاهندة صلاح

* * *